

روايات د. نجيب الكيلاني

من روائع الأدب الإسلامي

أهل الحميدية

People of Humiediah



Dr. Naguib Al Keilany



من إصداراتنا







الصحوة
ALSAHOH
دار الصحوة للنشر والتوزيع
5 عطفة فريد من شارع مجلس الشعب
ة زينب - القاهرة
ـفون 0020223937718
فاكس 0020223937767
بريد إلكتروني
daralsahoh@gmail.com

Design by Abdul Rahman Magdy

دكتور نجيب الكيلانى



رواية

الطبعة الأولى للناشر

١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

رقم الإيداع: ٢٠١٢/١٩١٢٧

الترقيم الدولي:

978-977-255-361-7



للنشر والتوزيع
٥ عطفة فريد - من شارع مجلس
الشعب - السيدة زينب
تليفون: ٠٠٢٠٢٢٣٩٣٧٧١٨
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٢٣٩٣٧٧٦٧
daralsahoh@gmail.com

مقطع من أغنية شعبية قديمة للأطفال :

أبـو قــــــــردانْ

زَرَعْ فَــــــــدَّانْ

نص مـلوخــــيــــهْ

ونُـصّ بِدِنْـجـــــانْ

حـــفــــر في الـطينْ

لَــقَــى ســكــينْ

دَبَّـــــــــحْ ولادهْ

وَقَـــعَــدْ مــسكينْ

●●●

[١]

لم يصدق «عبد المغيث» عينيه، لا بد أن هناك خطأ ما، أو أنه لم يتبين المكتوب فى القائمة جيداً، وربما يكون تحت وطأة كابوس من الكوابيس التى تغرق نومه فى اليأس والكآبة، وفرك عينيه، وعاد للقراءة مرة أخرى وقد اشتد شحوب وجهه القمحى اللون، كما ازداد خفقان قلبه بصورة قوية حتى شعر بقدر من التراخى فى ساقية، وأوشك أن يقع إعياء لكنه سمع صوت صديق «راضى» يقول له وهو يربت على كتفه:

- «شد حيلك . . واصبر واحتسب».

صرخ فى دهشة، وقال:

- «كيف يحدث ذلك؟ إنها جريمة».

- «ألا تذكر أن الله يبتلى عباده المؤمنين؟».

- «أنا لا أعترض على ابتلاء الله، ولكنى أعترض على ظلم الإنسان لأخيه الإنسان».

وأجهش عبد المغيث باكيًا، وأخذ جسده ينتفض كله، وهمَّ أن يخرج إلى الشارع، ويلقى بنفسه تحت عجلات السيارات المنطلقة فى جنون، وفكر أيضًا أن يصعد إلى أعلى مكان فى كلية الطب ليلقى بنفسه فى الساحة الكبيرة، إلى جوار «الكافيتريا»- المقهى- الذى لم يجلس فيه قط طوال أعوام الدراسة الستة، ومن أين له ثمن كوب الشاى أو الشطائر الدسمة الحلوة الشهية؟

تمتم فى ضيق:

- «أصبحت الحياة عبئًا ثقيلاً».

هتف راضى مستغربًا:

- «أكل ذلك من أجل تأخير ستة أشهر فى التخرج».

- «بل من اليأس فى الإصلاح».

- «أنت رجل مؤمن».

- «وماذا يفعل المؤمن إذا عجز عن دفع الظلم والاضطهاد؟».

- «يصبر..».

- «لا... بل يموت.. ويكون شهيدًا».

- «ليس الانتحار استشهادًا».

- «الكل فلسفة..».

- «ليس لنا فلسفة ولكننا أصحاب دين يضمنا جميعًا».

وانصرف عبد المغيث، ومضى فى شوارع المدينة على غير هدى، لقد فقد الرغبة فى الطعام والشراب.. بل وفى الحياة نفسها، هذه أول مرة يرسب فيها فى الامتحان، إنه الامتحان النهائى، كان يعد نفسه ليصبح طبيبًا، ويعتمد على نفسه، وبذل أقصى ما يستطيعه بشر، يستذكر فى الليل والنهار، ويمر على المرضى فى الغرف، ليطبق العلم على العمل، كان أحب العلم إليه «الجراحة» إنه يعشقها عشقًا؛ ذلك لأنها فى رأيه غالبًا ما تستأصل العلة، وتحقق الشفاء، ومن المذهل إنه لم يرسب إلا فى الجراحة، وهو واثق أنه أجاب فى الامتحان الشفهى والتحريرى إجابات صحيحة تضمن له النجاح بتفوق، فكيف يرسب؟ وفى الجراحة بالذات؟ لو كان الأمر أمرًا سياسيًا أو تجاريًا أو فكريًا نظريًا لكانت هناك احتمالات الخطأ فى تقدير الحسابات، لكن الأمر أمر علم راسخ الأركان، معروف القواعد والمبادئ، لا يختلف فيه اثنان؛ لأنه يتعلق بحياة إنسان، لكن يبدو أن الأوضاع اضطربت واختلطت فى هذه الأيام، وأصبح من العسير معرفة الحقيقة، وإقرار العدل، وأخيرًا وجد نفسه أمام مسجد المدينة الكبير، الذى يضم ضريح ولى الله سيدى «أحمد البدوى»، سمع مكبر الصوت يطلق الأذان، استعاذ بالله من الشيطان، ودخل المسجد، وتوضأ

وصلى مع المصلين، إن أغلب وقت العبادة قضاه فى التفكير بأمور الدنيا، لم يعد لديه دخل ينفق منه، وأبوه الفلاح أنفق عليه كلما يملك وهو قليل، وعمله وقت الفراغ- مع أنه لم يكن لديه وقت حقيقى للفراغ- تركه إلى الأبد وحل محله موظف آخر، كان يبيع الكتب فى مكتبة للتراث، يقضى فيها عدداً قليلاً من الساعات مقابل عدد قليل من الجنيهات، لقد أفرغ كل طاقته وشحنته فى الشهور الأخيرة استعداداً للامتحان، وارتمى فى آخر مضمار السباق لاهثًا منهكًا، وليس لديه أدنى قدرة لأن يتقدم متراً واحدًا. . المضحك أن خطيبته «رحاب» قد نجحت، مع أنه هو الذى كان يشرح لها الدروس، ويتفوق عليها طوال سنوات الدراسة، كيف يحدث ذلك، إن الظلم الواقع به لم يقهره فحسب، بل يسخر منه، ويخرج له لسانه. . .

قال له أحد الأساتذة أثناء الامتحان الشفهى:

- «أأنت المدعو «عبد المغيث الفرارجى؟»

- «نعم يا أستاذى».

- «هل تستطيع أن تخبرنى عن معنى اسمك؟».

- «المغيث هو الله. . والفرارجى هو الذى ينتج الكتاكيت ويبيعها للفلاحات. .».

- «وما صلة الطب بالكتاكيت» .

- «خروج الكتاكيت من البيض، يشبه إلى حد ما خروج الجنين من بطن أمه . . ها . . ها . . ها» .

- «تأدب يا ولد ولا تضحك . . » .

- «آسف يا أستاذى» .

- «ما اسم العملية الجراحية التى تجرى فى حالة وجود سرطان فى عنق الرحم وما هى خطواتها؟» .

وأخذ عبد المغيث يشرح باستفاضة، كانت صورة العملية مرتسمة فى خياله، لم يخطئ، وهو واثق من نفسه ومما يقول، وانصرف عندما أمره الأستاذ بذلك، وفي لجنة أخرى نظر إليه الممتحن، وقال:

- «أنت لست من سكان المدينة» .

- «نعم . . » .

- «تبدو عليك سمات الفلاحين» .

- «هذا صحيح . . » .

- «أمثالك يوسخون المهنة» .

- «لماذا؟» .

- «لأن الفقراء والجوعى يرتشون، ويكتبون الشهادات الطبية المزورة. . .».

- «المسألة مسألة أخلاق يا بك».

- «تعلمنى يا ولد؟».

- «العفو يا أستاذى. .».

- «حدثنى عن البلهارسيا ومضاعفاتها. .».

إنه صديق حميم للبلهارسيا، أصيب بها أبوه وأمه وأهل قريته، و كذلك أصيب هو الآخر بها، وعولج منها ثلاث مرات.

- «حدثنى عن داء الملوك (النقرس)».

صلى وهمَّ بالخروج من المسجد، سمع صوتًا نديًا يمدح الرسول، التفت صوب مصدر الصوت، رأى رجلاً يترنم، وحوله نخبة من الرجال يتطوحون يمنة ويسرة، فى حركات منتظمة، وحماس شديد، وهم يهتفون «يا الله. . يا الله. . يا الله»، أراد عبد المغيث أن يغيب عن الدنيا وهمومها، اندفع نحوهم، والتحق «بالذاكرين»، وأخذ يتطوح ويتلوى مثلهم، ويصرخ «يا الله. . يا الله» والدموع تنحدر من عينيه. . هائم فى ملكوت الله. . يبحث عن أفق رائق يخفف من سخونة جسده، واحتراق روحه،

ووسوسة الشياطين فى قلبه . . سمع المنشد يقول «قلوب العاشقين لها عيون . . ترى ما لا يراه الناظرونا . . وأجنحة تطير بغير ريش إلى ملكوت رب العالمينا» . . إنه يحلق بعيداً بعيداً عن غبار الأرض وهجيرها وضوضائها . . ويجلس فوق السحاب تبلله قطرات المطر المقدس . . وتوقف الذاكرون، وكذلك الحادى المنشد، أما عبد المغيث فقد ظل سادراً فى حماسه واشتعاله، مردداً للاسم الأعظم، فقام أحد الجالسين، وضمه إلى صدره وأخذ يربت على رأسه وكتفه وظهره، وهو يقول له :

- «وَحِّد ربك يا مؤمن» .

وأخذ صوته يخفت رويداً رويداً، حتى صمت، وظل مغمض العينين بعض الوقت، ثم فتحهما، وقاس ما حوله بنظراته الدامعة، وتمتم :

- «ماذا جرى؟ لم أشعر بنفسى» .

وامتدت يد لتقبض على معصمه، فنظر فإذا بصديقه راضى يقول له فى حسم وجدية :

- «هيا بنا» .

فى الطريق إلى بيته قال :

- «إننى سعيد بنجاحك يا راضى . . » .

- «أعرف ، لكن النجاح الحقيقى هو أن نصمد للمحن كرجال مؤمنين» .

- «أتشك فى إيمانى؟» .

- «حاشا لله ، ولكن فيك ضعفًا من قديم» .

- «ما سببه يا راضى؟» .

- «أسباب كثيرة ، لكنك تريد أن يكون كل شىء على ما يرام» .

- «ولم لا؟» .

- «هذا مستحيل . . فالدنيا ناقصة . . فاسدة . . ممتلئة بالمحبطات . . » .

- «إذن قل لى لماذا أسقطونى» .

- «هذا ما نبحث عنه» .

أكل وشرب دون شهية ، ثم دخل غرفته القليلة الأثاث ، وأغلق بابها من الداخل ، وهو يقول :

- ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ [مريم : ٢٦] .

ولم تفلح جهود راضى فى إقناعه بفتح الباب ، والخروج إليه ، ومشاركته الحياة كالمعتاد ، وأدرك راضى أن عبد المغيث يعانى من حالة انهيار نفسى خطر ، ولا بد أن يتخذ إجراء سريعًا ، حتى لا تتدهور حالته ، ويتعرض لم ضاعفات قاتلة . .

وفكر راضى أن يستعين بزميلتهم رحاب خطيبته . . .

●●●

[٢]

كان لحادث رسوب عدد كبير من طلبة الطب صدى كبير ؛ ذلك لأنه أشيع أن رئيس قسم الجراحة الدكتور «وفيق جاب الله» قد عبث بالنتيجة ، وكانت حجته فى ذلك أن الوساطات تدخلت فى الامتحانات الشفهية والعملية ، فنال بعض الطلبة درجات عالية فيها ، وعندما قارن بين درجات الطالب فى التحريرى وفى الشفهى وجد البون شاسعًا ، فقد ينال الطالب درجة مقبول فى التحريرى ودرجة الامتياز فى الشفهى مع أنها المادة نفسها ، فكان أن أعاد النظر فى النتيجة واحتسب درجات الشفهى فى مستوى التحريرى ، ومن ثم رسب عدد كبير من الطلبة ، وتناسى أن درجة الشفهى عادة تكون أكبر من التحريرى واعتماد الطالب يكون عليها ، وتظاهر الطلبة مما أقلق رجال الأمن والجامعة ، فقرر العميد تشكيل لجنة لتقصى الحقائق ، وفى الوقت نفسه سمح للطلبة بتقديم التماسات بهدف فحص أوراق الإجابة مرة أخرى ، وتصحيح الخطأ الذى ارتكب فى تعديل درجات الشفهى ، وهدأت عاصفة الاحتجاج نوعًا ما .

أتت رحاب مهرولة إلى بيت خطيبها عبد المغيث وهى تحمل إليه هذه الأنباء السارة، فى البداية رفض أن يفتح لها باب غرفته ويقابلها، كان قد أصابة اليأس والإحباط التام.. ولم يعد يثق فى أحد بهذه الدنيا الفاسدة، لكنها ألحت عليه، كانت تحب صدقه وبراءته و ستقامته وجده فى العمل وشرحت له التطورات الأخيرة فى الكلب، فراوده شعور بالأمل الواهن.

قالت له:

- «الرجال الحقيقيون يصبمدون».

- «ظللت صامداً طوال حياتى فلم أنتصر، إننا دائمًا نحارب معارك خاسرة..».

- «من قال ذلك؟ لقد حققت الكثير، وأنت على أعتاب المجد».

ضحك فى سخرية:

- «أنت تحلمين».

- «وغداً يكون الحلم حقيقة».

- «كلماتك كالمخدرات.. تسكن الألم وقتًا قصيراً دون أن تقضى على الداء».

- «لكنك رجل مؤمن».

رفع رأسه إلى سقف الغرفة، وبدا شاحبًا متوترًا، وبدا القلق والحزن فى عينيه التى تتحرك حركة سريعة، ثم تحول لينظر عبر النافذة المحطمة الزجاج، وقال شاردًا:

- «الإيمان.. آه.. يا لها من كلمة ساحرة.. أحيانًا يخيل إلى أن الإيمان بضاعة المحرومين والمقهورين، فليجأون إليه وقد فقدوا كل حيلة فى الخلاص..».

ثم ضرب بقبضته اليمنى على الحائط، وقال:

- «لا حل سوى القوة».

قالت بثقة:

- «قوة الإيمان».

- «تقولين ذلك لأنك نجحت، لم تشعرى بالقهر والمرارة.. إن الظلمة والفسقة لا بد وأن يشنقوا على قارعة الطريق حتى يكونوا عبرة لغيرهم».

- «هذه فلسفة الحاكمين الطغاة، وقد عشنا نحاربهم».

- «لم تكن حربًا، ولكنها مناوشات صبيانية.. إن وجه الأرض يجب أن يتغير.. الدمار ثم البناء.. لو كان لى قريب أو أب من علية القوم، أو كنت ابنًا لأستاذ لكان موقعى فى الصفوف الأولى من المتفوقين...».

وابتلع ريقة ثم قال :

- «ألا ترين أن الموت أعظم من الحياة الرديئة التى نستذل فيها!» .

- «لم أعهدك هكذا ، والحياة والموت بيد الله . . . » .

- «هذا حق ، ولكنهم افتأتوا على حق الله . . أليسوا كفرة» .

رأت أنه لم يزل تحت وطأة الغضب الممزوج باليأس . وأن صحته النفسية ليست على ما يرام ، حاولت إقناعه بأن يخرج ليقدم التماسًا باسمه إلى عميد الكلية لإعادة تصحيح امتحانه ، ومن المعروف أن هذه الشكاوى أو الالتماسات لا تأتى بنتيجة تذكر فى العادة ، لكن لا بأس من المحاولة ، خرج معها يجر ساقيه جرآ ، ينظر إلى الناس فى الشارع فيضحك فى أسى يقول : «هؤلاء هم عرائس السرك . . ينامون ويستيقظون . . وينجبون الأطفال ، ويعيشون كالبهائم . . » ، ويشاهد السيارات الفاخرة تمرق إلى جواره فيتمتم : «هل تعرفين معنى الزولمكة والتمساح والخنزيرة؟» ابتسمت محاولة التخفيف عنه «إنها نوعيات من سيارات المرسيدس ، وفى المستقبل ستركب واحدة منهات إن شاء الله بعد أن تصبح طبيبًا مشهورًا» فهقه فى الشارع بصورة لفتت الأنظار إليه ، وشاركته بابتسامتها ، ثم هدأ ، وقال :

- «الطريق إلى الجنة أيسر من ذلك».

- «وهذا من فضل الله يا عبد المغيث. . ألم يقل نبينا ﷺ «حُفّت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات».

- «صدق رسول الله ﷺ».

وفوجئت رحاب بعبد المغيث يقول لها:

- «إننى أدعوك للعرض السينمائى المسائى الليلة. .».

نظرت إليه فى دهشة:

- «ماذا جرى لك؟».

هز كتفيه، وقال:

- «مجنون أفلت عيارة».

- «الناس يدخلون السينما، لكن. .».

- «لكن ماذا؟ نحن لم ندخلها منذ سنوات؛ ذلك لأنها فسق وفجور. . كنا نقول ذلك يا رحاب. . لكن الواقع أن السينما تعلمنا أشياء لم نتعلمها فى الكتب أو الجامعة. . إننا نتعلم فيها طرق الثراء السريع، والقضاء على الخصوم، والتهرب الضريبى، والعبث بالقوانين، والانتقام من القتلة، والخيانة الزوجية، والتملق والنفاق، واقتناص الوظائف المهمة. . لقد أدركت أخيراً أن تعليمنا

ناقص مبتور، والجانب الأكبر فى الحياة وفى الواقع لا نعرف عنه شيئًا، وبالتالى ليس لدينا أية خبرة فيه، وإذا بقينا على هذا الوضع فستطأنا النعال ، وتسحقنا عجلات الخنزيرة والزولمكة والتمساح . . وحن عربات الكارو».

أشارت بيدها إلى «تاكسى»، ثم دخلت وهو وراءها، وهمست:

- «قبلت دعوتك».

ثم التفتت إلى السائق قائلة:

- «الجامعة».

فى الجامعة رأى زملاءه الضحايا، شعر بشىء من السلوى، وكتب شكواه، ورفعها إلى المدير وهو يردد فى نفسه «الشكوى لغير الله مذلة . . »، ووجد زملاءه يكتبون العرائض ليبعثوا بها إلى الصحف السيارة والمجلات ، وإلى وزير التعليم والقيادات السياسية، هز رأسه قائلاً:

- «هذا هراء . . إنهم ينسون أن فى كل موقع رسمى مزبلة يرمى فيها بهموم الناس».

وجاءته فكرة . .

رفع يديه إلى أعلى، وصاح:

- «أيها الزملاء . . استمعوا إلىّ . . إنكم تعلمون أن هناك حالات مرضية ميئوس منها شفائها . . السوس ينخر فى عظام المجتمع . . والفساد مستشر من القمة حتى القاع . . نحن فى مزرعة للذئاب . . إن لم تكن ذئبًا أكلتك الذئاب . . قلتها دائمًا ، ولكن لا تحبون الناجحين ، إن الجواسيس الذين يبيعون أسرار بلدنا ليس هم الخونة وحدهم . . الخونة الحقيقيون هم الذين يحتقرون كرامة الإنسان وعرقه ، ويستغلون ويختلسون ويرتشون ، ويجودون على من لا يستحق . . أيها الناس الصدق أمانة والكذب خيانة . . أيها الناس ثوروا فلن تخسروا غير الأغلال . . . » .

أمسكت به «رحاب» وحاولت أن تضع يدها على فمه ، بينما أخذ الزملاء يصفقون ويضحكون ، ويثنون على بلاغته ، ويطالبونه بالمزيد ، ولم يطل به الوقوف ، فقد أحاط به خمسة من الرجال الأشداء ، وتأبطوا ذراعيه ، وخرجوا به إلى مكتب الأمن بالجامعة ، ورحاب تلهث وراءه ، ووجهه شاحب صامت كوجه التمثال ، وحاولت رحاب إنقاذه من بين أيديهم ، قالت لهم إنه يعانى من انهيار عصبى بسبب رسوبه ، وإنه لم ينم منذ أن قرأ النتيجة ، وشعور الاضطهاد يداهمه كل لحظة ، ويجلس يحدث نفسه . . إنها مرحلة مؤقتة وسوف يجتازها بسلام إن شاء الله . . .

قال قائد الحرس :

- «إن التعليمات التى لدينا هى عدم إثارة حفيظة الطلبة، والتسامح معهم، وعدم القبض عليهم حتى تنتهى لجنة تقصى الحقائق من أعمالها. . . ولهذا أقول لكم مع السلامة، بشرط. . ».

- «ما هو؟».

- «أن توعودى به إلى بيته حتى تتضح الأمور».

عندما خرج عبد المغيث من المكتب رأى زملاءه متجمهرين يعلنون سخطهم ورفضهم لما حدث له، لكنهم هدأوا بعد أن رأوه خارجًا متجهًا صوب باب الجامعة، وقال بعضهم:

- «أن تكون خدعة».

- «كيف؟».

- «يطلقون سراحة أمامنا. . ثم يعتقلونه من بيته».

- «إنه ليس إرهابيًا، ولم يرتكب جريمة. . ».

وظل عبد المغيث طوال المشهد الأخير صامتًا، حتى ظنت رحاب أنه حبس لسانه، حاولت أن تكلمه فلم يرد، كان ينظر إليها نظرات غريبة، ثم يتحول عنها، إن رأسه يغلى، مخه يعمل بكامل طاقته، يعيش تمامًا فى داخل نفسه المضطربة، ولا يكاد يرى شيئًا حوله، وحينما دقت جرس الباب فتح لها الدكتور راضى، وبعد أن قصد عبد المغيث غرفته، قالت لراضى بصوت خفيض:

- «لتكن عيناك عليه . . ولا تدعه وحده» .

- «بالتأكد . . » .

- «سأذهب لأحضر له بعض الأقراص المهدئة والمنومة . . لا بد أن ينام ، وإلا حدث ما لا يحمد عقباه . . » .

وقبل أن ترحل وقفت تفكر لحظة ثم نادت بأعلى صوتها :

- «هل سنذهب للسينما يا عبد المغيث؟!» .

ودهش راضى لما يسمع .

وسمعا عبد المغيث يصفق فى الداخل ويردد المقطوعة الشهيرة :

هـاتـوا فلـوسـنـا

سـيـمـا أونطه

هـاتـوا فلـوسـنـا

سـيـمـا أونطه

وهبطت الدرج دامعة العينين .

●●●

[٣]

قدم أبوه من القرية يرتدى جلباب المناسبات، وهو جلباب قديم من الصوف، لعله اشتراه يوم زواجه، كحلى اللون، رث الهيئة، ومن عادته أن يلبسه كل عيد، أو عند السفر من القرية إلى المدينة، ويلبس الرجل فى قدميه حذاء (حلق جمل) برتقالى اللون أجرب، وعلى رأسه طاقية من الصوف المغزول، ولم يهتم الرجل بحلق لحيته أو تهذيب شاربه، فالمناسبة ليسته سارة، ذلك أنه علم من أهل القرية أن ابنه قد رسب فى بكالوريوس الطب، وهذه أول مرة يرسب فيها، وكان قد أعد غرفة فى بيتهم بالقرية لتكون «عيادة» له عقب نجاحه، كان الفرارجى نحيلاً قصير القامة، من ينظر إليه يدرك على الفور أنه رجل مسالم صبور، لكنه مع ذلك كان يشعر بحزن عميق؛ لا لأن ابنه رسب، بل لأنه يعلم أن عبد المغيث حساس ذو كبرياء، وسيكون الرسوب بالنسبة له مهانة وذلة وضياع مستقبل، وهو يعلم يقينًا أن ولده لم ولن يكون مقصرًا، ومن ثم فلا تفسير لما حدث سوى أنه مجرد حظ ونصيب، وإرادة الله غالبة،

وتمتم الفرارجى بينه وبين نفسه . . «قد تأتى الآفات على الزرع، وتقضى عليه قضاء مبرمًا، حدث ذلك كثيرًا، لكن كنت أنتظر دائمًا المحصول القادم، ونحن لم نمت يومًا من الجوع، قد ينكفئ الجواد لسبب أو لآخر، لكنه ينهض بسرعة، ويسرع فى سيره أكثر من ذى قبل، بعد أن ينهض من كبوته»، هكذا كان يحدث نفسه وهو يصعد الدرجة حينما رآه عبد المغيث، حملق فيه بابتهال، ثم جرى نحوه واختطف يده الخشنة وقبلها فى حرارة، وبللها بالدموع، ثم فتح أبوه ذراعيه، واحتضنه فى عشق، وتمتم:

- «قلبى معك يا ولدى».

- «هل عرفت . . ؟».

- «الناس دائمًا يسارعون بنشر الأخبار السيئة، ويتلكأون فى إبلاغ الأخبار السارة، ويتمنون أن تكون أكذوبة . .».

- «هم شامتون إذن يا أبى».

- «لا عليك . . أنت مسحود دائمًا، ألا تعرف أنهم يغارون؟».

- «هذا وقت الشماتة».

- «بل وقت النهوض والعمل».

- «وكيف ألقى الناس فاشلاً».

- «كن مع الله يا عبد المغيث . .».

أطرق برأسه حزينًا .

سمع أبوه يقول :

- «حضرت لك فطيرة مشلتتة وقطعة جبن قديمة ، وزجاجة من العسل الأسود ، وزوجًا من الحمام المحشو بالفريك ، وأرز الفرن الشهى . . » .

جلس الرجل على الكنبة الخشبية ، وفتح البقجة ، وهتف :

- «ادع صديقك «راضى» وهيا لتناول الطعام ، أما أنا فسأذهب لصلاة العصر فى مسجد «البدوى» وأقرأ له الفاتحة ، وأعود . . » .

- «عافت نفسى الزاد يا أبى» .

- «الدنيا لم تنهدم . . » .

- «بل انهدمت فوق رأسى ؛ ذلك لأن الظلم زلزال مدمر» .

- «لكنه إلى زوال» .

- «كيف . . » .

- «هكذا أراد الله» .

- «إيمانك يا أبى راسخ كالجبل» .

- «لا أدرك ذلك . . ولكنى دائمًا أرضى بما قسمه الله» .

- «هذا فضل من الله عليك».

- «أترضى بالظلم؟».

- «أرضى بحكم الله..».

- «والظلم..؟».

- «أشكو بثى وحزنى إلى الله.. أنا رجل ضعيف، لا أملك إلا أن أدعو المولى.. هذا كل ما فى الأمر..».

- «لكننى غيرك..».

- «أنت منى، لكنك تطمع فى المزيد، وإذا لم يتحقق أملك ثرت..».

- «ماذا أفعل..».

- «ارض.. واقنع.. كان شيخى يقول: ازهد فى الدنيا تجدها تلهث وراءك..».

ابتلع عبد المغيث ريقه، وقال:

- «الحقيقة يا أبى أننى أراك دائمًا تلهث، وما رأيت الدنيا تجاملك قط بشىء من خيراتها الكبرى..».

ابتسم الفرارجى، وربت على كتف ولده فى حنان، وقال:

- «أنت بالنسبة لى أعظم خيرات الدنيا..».

ثم رفع يديه إلى السماء هاتفًا: «لك الحمد يا رب» وعاد يمسك بيد ولده قائلاً:

- «لو خيرونى بين عزبة من ألف فدان وأنت لاخترتك، ولو قدموا لى الملايين وأخذوك منى، لرميت ملايينهم فى البحر وتشبثت بك..».

أفاق عبد المغيث لهذه الكلمات، كانت تتغلغل فى روحه دون عناء، وتمتلك وجدانه فى سهولة ويسر، وقال:

- «مَنْ علمك هذا يا أبى؟».

- «خالقى.. أنا لا أعرف الكتابة، ولم أقرأ قط.. أسمع القرآن والأحاديث.. كان نبينا ﷺ وأنت تعلم، يقول: «أدبنى ربى فأحسن تأديبى»...».

كز عبد المغيث على أسنانه، وقال:

- «أعرف كل ذلك، لكنى يائس.. حزين.. أكره الدنيا..».

عاد عبد المغيث يبتسم مرة أخرى، وقال:

- «عندما تأكل الحمام المحشو، وتشرب كوبًا من الشاى، فستشعر بالقوة، وتذهب عنك الوساوس.. وعندئذ تنام قليلاً، ثم تصحو لتستأنف عملك.. إذا فعلت، نسيت الهموم.. يجب أن ترمى وراءك كل ما ينغص عليك حياتك..».

همس عبد المغيث شاردًا:

- «أيمكن أن يكون التعليم قد أفسد فطرتى؟».

- «مستحيل..».

- «لماذا؟».

- «لأن العلم نور..».

- «فما معنى ما يحدث؟».

- «معناه أن تعليمكم ناقص».

- «ناقص؟».

- «نعم.. ناقص، ويبدو أن علم الحياة أقوى من علم الكتب، أنا لا أقرأ، ولكنى أشعر بذلك».

وهز الفرارجى رأسه، وقال:

- «إن الحياة لا يمكن أن تسير حسبما نهوى؛ ذلك لأن للكون خالقًا يدبره، ومهما حاولنا فلن نغير شيئًا، نحن يا ولدى نروح ونجىء ونعمل فى مساحة محدودة.. بيده سبحانه ملكوت كل شىء..».

وقال عبد المغيث:

- «يخيل إلىّ يا أبى أننا ليس لدينا الوقت لنعتبر..».

- «هذا حق، تخطفون كل شىء اختطافًا، ولهذا لا تتذوقون طعم الرضى . . » .

- «تقصد السعادة؟» .

- «سمها ما شئت، لكنى مرتاح البال، حتى رسوبك هذه المرة لم يؤسنى ؛ ذلك لأنى واثق أنك ستنال نصيبك فى الوقت الذى يحدده الله . . . » .

شعر عبد المغيث بالارتياح لكلمات والده الحكيم المؤمن، إنها أقوى ألف مرة من المهدئات التى يصفها الأطباء، ومفعولها راسخ متين، أمسك بيد أبيه وقبّلها فى حرارة، ابتسم أبوه قائلاً :

- «وما مناسبة ذلك؟» .

- «تشعرنى دائمًا بأنك أبى وطبيبى . . » .

ضحك الفرارجى، وقال :

- «وأنت ابنى وحبيبى، لك روحى وما أملك» .

- «لذلك اشتهيت النجاح بقوة حتى أسعدك وأنهى قصة معاناتك الطويلة معى . . » .

- «أيها الابن الطيب، لم أشق فى الحياة قط، كنت فى قمة الرضى وأنا أضحى من أجلك . . إنها عبادة الله . . وحياتى كلها

هكذا، لم أطمع فى مال أملكه، أو أرض زراعية أوسع رقعتها، ولكنى دعوت الله لك أن تتحقق آمالك. . ».

وابتسم الفرارجى مرة أخرى:

- «قالت لى أمك وأنا قادم إليك: قل لولدى عبد المغيث إن الله لن يتخلى عنه أبدًا، وأن دعواتى له فى سكون الليل لن تذهب هباء. . ».

وتحول الفرارجى عن حديثه العاطفى فجأة، ربما قصد ذلك عمدًا، ثم التفت إلى ولده، وقال:

- «أصدقنى القول، هل تضايقت عندما نجحت رحاب ولم توفق أنت؟».

دق قلب عبد المغيث، وبدا الكدر على وجهه للحظات، ثم قال:

- «المسألة ليست مسألة غيرة أو حسد، ولكنها مسألة كبرياء الرجل».

- «لقد فهمت، لكنها بنت طيبة مخلصة».

- «ولم تكن أكثر منى علمًا. . ».

- «ولكنها متفوقة فى الجمال».

- «والأساتذة يحابون الجميلات. . والجميع يعرفون ذلك، ولذا ترى الفتيات يأتين إلى الامتحان وقد تزين وكأنهن ذاهبات إلى عرس».

- «وهل فعلت رحاب ذلك؟».

- «الحق يقال يا أبى، إنها لم تتعود قط على استخدام أدوات الزينة. .».

- «ومع ذلك تبدو فاتنة لكنى أقول إن زينة البنت أدبها».

حينما رحل الفرارجى عائدًا إلى قريته، بدا له وكأنه قد ترك روحه ترفرف على ولده في المدينة، تمنى أن يبقى إلى جواره أطول فترة ممكنة، لكنه أيقن أن من المفيد أن يخلو عبد المغيث إلى نفسه، ويعيد ترتيب أوراقه، كما تمنى الفرارجى أن يصحب ولده معه إلى القرية لفترة استجمام، لكنه أدرك أن مجيء عبد المغيث إلى أهله فى هذده الحالة لا يروق له، ولم يكن يملك له غير الدعاء النابع من القلب، والدموع التى تنسكب خفية ألمًا من أجله، فهو يتمنى أن لو استطاع أن يقيم من نفسه درعًا واقيًا يحمى ابنه من العواطف والنكبات والمنغصات، كما تمنى أن يحمل عنه أعباء الهموم، ورياح الأحزان التى تعصف به، وهيهات فهو لا يستطيع أن يقدم له إلا الأمنيات الطيبة، والابتهال إلى خالقه أن يجنبه كل مكروه. .

واستقامت حياة عبد المغيث ليومين أو ثلاثة، أسعده أن رحاب قالت له ذات مرة «تمنيت أن تنجح أنتَ، وهذا حقك، وأنا أرسب أنا، لكن ليس الأمر بيد أحد منا»، ووقعت كلماتها فى قلبه راحة ورحمة وحبًا، ما أشبه مشاعرها بمشاعر أبيه الرجل الصالح، كان يستمع إلى كلماتها وهو موقن أنها لا تنافق أو تخدع أو تتظاهر، البراءة فى وجهها والصدق فى عينيها، والإخلاص فى نبرات صوتها، وتمنى أن يفتح ذراعيه، ويضمها إلى صدره الجائع، ويغرق وجهها الطاهر بالقبلات، ولكنه لا يمكن أن يفعل ذلك، إلا فى إطار القيم الدينية التى آمن بها، ودافع عنها، ويريد أن يضحى فى سبيلها، لكن نظراته كانت تشى بكل ما يعتمل فى صدره من حرمان يستعذبه ولا يضيق به.

وكان عبد المغيث يأمل أن تنظر الكلية فى الالتماسات المقدمة من الطلبة المظلومين بعين الاعتبار، وتأخذ الأمر مأخذ الجد، فالقضية لا تحتاج إلى إهمال أو تأجيل، وإن لم تفعل الكلية ذلك فسيكون معناه انهيار المثل والقيم، وضياع هيبتها، وغرس بذور الشكوك والفتن واليأس فى أى إصلاح ممكن، وحينما ذهب عبد المغيث إلى الكلية ليستفسر عما تم لم يجد جديدًا أمامه، بل على العكس قال له أحد الموظفين المرموقين:

- «الكلية لم يحدث أن أنصفت طلبتها على حساب

أساتذتها . . وحتى لو أتوا بمصححين من الخارج للامتحان التحريرية، فلن يضعوا درجات تخالف ما وضعه إخواتها . . » .

- «المسألة تمثيلية . . أعنى مهزلة» .

- «سمها ما شئت . . إنها لمجرد امتصاص غضبكم . . فلتذهبوا وتذاكروا كى تستعدوا للامتحان القادم، وهو آت بعد أقل من خمسة أشهر . . » .

وسمع عبد المغيث كلامًا مشابهًا من بعض زملائه فى الكلية، بل وفى الكليات الأخرى، وغلى الدم فى عروقه من جديد، فكر أن يشترى سلاحًا، وينقض على الظلمة من الأساتذة ويبيدهم عن آخرهم، حتى يكونوا عبرة لغيرهم، وفكر أن يحرق الكلية على من فيها وبمن فيها حتى يجتث الطغيان من جذوره . . ووجه أبيه الصابر المبتسم يطل عليه من علٍ وكأنه تجسيد لتلك المبادئ، وفى وسط السحب المدلهمة تتبدى عيون رحاب الطاهرة، فيقرأ فيها ألف قصيدة حب وابتهال، وبقى ليلتين لم ينم فيهما، ذهب إلى المسجد وصلى الفجر ذاهلاً، لم يعد يستطيع السيطرة على أفكاره وأعصابه، جاءه الانهيار مرة أخرى، الناس تبدو فى الشارع كأشباح غامضة تتحرك وسط ضوء ضئيل يغشيه الضباب، وقدماه تمضيان به إلى حيث لا يعلم، وجد نفسه واقفًا فجأة أمام موقف

السيارات التى تنطلق إلى الإسكندرية، ركب أحداها دون وعى، سأله السائق: «إلى الإسكندرية» هز رأسه دون أن يجيب، عيناه تتأرجحان كمجنون، حسبه السائق من مدمنى الحشيش، لم يكترث، وبعد فترة انطلقت السيارة، لفحه نسيم الصباح البارد، ووجهه محتقن يشع حرارة . . تحسس جيبه وجد الحبوب المهدئة للأعصاب، إنه لا يعرف لنفسه طريقًا ولا غاية، ولا يستطيع التفكير، ابتلع كل ما معه من حبوب، بعد دقائق أخذ يتطوح كالثمل، ثم بدأ فى الهذيان، كلماته تخرج مختلطة غامضة لا يكاد يفهم منها شىء . . .

صاح راكب يجلس إلى جواره:

- «أيها السائق . . توقف . . هذا الشاب يموت . . ».

ركنت السيارة إلى جانب الطريق، وأنزلوه وهو لا يقوى على الحركة أو حتى فتح عينيه، قال السائق:

- «ماذا نفعل فى هذه المصيبة؟ لم أكن مرتاحًا لمنظره عندما ركب . . . ».

قال أحد الركاب:

- «لن نتركه يموت . . ».

ورد آخر:

- «نحن الآن فى دمنهور، فلنذهب به إلى المستشفى العام فى أسرع وقت..».

قال السائق فى غضب:

- «يا للمصيبة!! سندخل فى سين وجيم.. وشرطة.. ومحاضر، وستخرب بيوتنا..».

رد أحد الركاب:

- «إنها مسألة إنسانية، وسندفع لك بالتضامن ما تريد..».

- «أنا لا أريد إلا أن أؤدى مهمتى وأعود لعيالى..».

وذهبوا به إلى المستشفى، فحصوا ملابسه، وجدوا علبة الأقراص الفارغة، إنها من نوع «الفاليوم»، كما وجدوا فى جيب السروال بطاقته الشخصية، وبطاقة الكلية، علقوا له المحاليل من الأملاح والجلوكوز، أعطوه منشطات للقلب. وأدوية لرفع الضغط، وغسلوا له المعدة وأعطوه بعض مضادات السموم.

فى هذا الوقت كانت رحاب وصديقه راضى يبحثان عنه فى كل مكان، وذهبا إلى أبيه فى القرية فلم يعثرا له على أثر، وقدم أبوه وأمه إلى المدينة ليمشطوها بحثًا عن ولدهم، وكانت أمه تبكى وتصبح «يا عبد المغيث.. أين أنت يا ولدى؟؟ أين أنت يا حبيبى..».. أما أبوه فقد جمدت الدموع فى عينيه، وبدا شاحبًا

يتلفت فى حيرة، وقلبه لا يكف عن الدعاء، وجاء المساء بكآبته وهمومه، فذهبوا إلى المستشفيات وأقسام الشرطة والمقاهى والفنادق والمساجد وبيوت الزملاء بحثًا عنه.. لكنهم لم يعثروا له على أثر، فى اليوم الثالث لغيابه حدث أمران فى غاية الأهمية، أولهما: أن اللجنة المشكلة لتقصى الحقائق بكلية الطب أصدرت قرارها بتصحيح درجات عدد لا بأس به من الطلبة والطالبات، ونتج عن ذلك نجاح عدد كبير منهم من بينهم «عبد المغيث الفرارجى»، وكانت تلك النتيجة مفاجأة لم يتوقعها أحد ذوى الخبرة فى مثل هذه الأمور، أما ثانى الأمرين فقد وردت إشارة إلى «قسم ثانى» بشرطة المدينة، تفيد بوجود عبد المغيث فى مستشفى دمنهور العام تحت العلاج من تسمم دوائى، واتصلت إدارة الشرطة بعنوان المكتوب بالبطاقة، فأسرع راضى بالسفر إلى دمنهور يرافقه الفرارجى وزوجه ورحاب..

حينما دخلوا إلى غرفة العلاج، كان عبد المغيث يجلس شاحبًا منزويًا مختبئًا تحت الملاءة البيضاء التى لفها حتى عنقه، ورأته أمه فزغردت.. وأخذت تصيح:

- «مبروك.. ألفين مبروك يا عبد المغيث.. نجحت يا ولدى»

أصابه الذهول.

- «أهى خدعة لكى تساعده على الشفاء»؟

وانقضت أمة تغرقه بقبلاتها ودموعها . . دموع الفرح إذ رأته فى حالة لا بأس بها، ثم لأنه نجح فعلاً ، ووقف أبوه صامتًا والنور على وجهه النحيل ، السعادة تغمر وجهه برغم الدموع التى تنسكب بوقار ، وقرأ عبد المغيث الصدق فى وجوههم ، وأحسه فى كلماتهم، وشرح له راضى تفاصيل ما حدث فى الكلية .

هبَّ عبد المغيث من سريره، ووقف فوقه وأخذ يهتف وكأنه فى مظاهرة جامعية :

- «يحيا العدل . . يحيا العدل» .

ثم ارتمى على السرير وشهق باكيًا ، ومن بين شهقاته أخذ يقول :

- «كنت سأخسر الدين والدنيا . . أستغفر الله العظيم . . كيف جاز لى أن أيئس من رحمة الله؟؟ كيف وأنا المؤمن الصائم المصلى . . القارئ للقرآن . . » .

قال أبوه بلهجته القروية وهو يشيح بيده :

- «كانت غمة وانزاحت . . هيا بنا . . وكفى . . » .

●●●

[٤]

عاد عبد المغيث إلى قرية «الحميدية» فى موكب النصر، بعد أن سبقته الأخبار السارة ركب سيارة خاصة مع أسرته، كان يشعر بالفخر والارتياح والحمد، أخذ السائق يطلق نفيره بصورة عالية متوالية.. تجمّع الأطفال والنسوة وبعض الرجال، أطلت أمه «تفاحة» من فوق السطح فى جلبابها الأسود المحتشم وزغردت عدة مرات، وشاركها نسوة الحى فيما تفعل، ونزل أولاً أبوه من السيارة مطأطئ الرأس شاكرًا لله، ثم نزل عبد المغيث وهو يرفع هامته دون غرور، وتوالت أفواج المهنئين، ومدت الصوانى اللامعة بأكواب «الشربات» الحمراء، هذا يوم من أيام القرية المشهودة؛ ذلك لأن طبيبهم من بينهم، وابن فلاح بسيط منهم، يعرف جيدًا ما يعانون، ويرتبط بهم ارتباطًا عاطفيًا وثيقًا، ومن اللافت للنظر أن يأتى الحاج «متولى العشرى» شيخ البلد بنفسه- ولأول مرة - ليدخل بيت الفرارجى، ويجلس على مصطبة فى باحة البيت عليها شريط من الحصير، ويتواضع ويبادل الفرارجى وعبد المغيث الحديث فى رقة

ود، ويحرص أن يقول «يا أخى الفرارجى أنت تعلم . . ولا شك يا أخى أن الأمور لا بد وأن . . وبطبيعة الحال يا أخى الفرارجى أن يكون لابننا عبد المغيث عيادة تليق بمقامه . . وقد استخرت الله أن أعطيه الشقة الكائنة فى الدور الأرضى فى البيت الذى بنيته خصيصًا للموظفين الغرباء الذين يخدموننا فى المدرسة ومجلس القرية والجمعية الزراعية، وأجّرت المساكن لهم بأجر زهيد . . هذا واجبى يا ولدى دكتور عبد المغيث . . فمن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم . . وأنا والله يا فرارجى يا حبيبى كنت أحب عبد المغيث منذ صغره أى والله بعقد الهاء . . إنه فى معزة ابنتى «ملكة» التى لم يرزقنى الله سواها . . فوهبت لها عمرى وحياتى ومالى . . تعرف يا عبد المغيث يا بنى أننى فضلت أن تعتصم ببيتها بعد أن نالت الشهادة الإعدادية بتفوق، لم يكن فى رأيى أن أبعث بها إلى المدينة - وهى وحيدتى لتذوق مرارة الغربة، وتتعرض لفساد أهل المدينة . . من يستطيع القول بأن المدينة فيها امرأة واحدة تحافظ على كرامتها وشرفها؟ أنا لا أثق فى واحد منهن ولو كانت «رابعة العدوية . .»، ويستطرد وهو يضحك «هل شاهدت فيلم رابعة فى التليفزيون يا فرارجى؟» ويبتسم الفرارجى فى تواضع ويقول «ليس عندى تليفزيون ولا راديو . . وليس لدى الوقت أو الإمكانية لأسمع إلا مقرئى القرآن الكريم . .»، ويربت الحاج متولى على كتف الدكتور

عبد المغيث، ويقول «بالطبع فإن ابننا عبد المغيث يشاهد التليفزيون والسينما، أعرف ذلك أخباره كلها عندى».

وفجأة مال الحاج «متولى» على أذن الدكتور عبد المغيث، وقال:

- «جاءوا إلىّ يسألون عنك».

- «مَنْ..؟».

- «ومن غيرهم؟ رجال المباحث العامة..».

- «لكنى..».

- «بالطبع أعرف أنك برىء من أية شبهة، لكنهم للأسف يزعمون أن لك نشاطًا سياسيًا معارضًا للحكومة.. وأنك وأنك.. أنت تعلم ما يجرى هذه الأيام.. لكنى والشهادة لله أقسمت لهم أنك برىء من أية شبهة، وأننى -ومعى العمدة وهو كالخاتم فى إصبعى- نضمنك بأرواحنا بصفة شخصية، ولم أكتف بهذا - أى والله بعقد الهاء.. سافرت سرًا إلى وزارة الداخلية.. هل تعرفها؟ إنها فى شارع خيرت.. الحقيقة أننى استُقبلت استقبالاً حافلاً أبهج قلبى منذ أن عبرت باب الوزارة حتى مكتب درويش بك مفتش المباحث.. تعلم أنه نسيب عائلة زوجة أخى.. هذا الزمان زمن الوساطة والخواطر والتوصيات، وإذا لم تفعل سقطت تحت

الأرجل، ولا مغيث يا ولدى عبد المغيث . . أقسمت ألا أشرب القهوة فى مكتب درويش بك إلا إذا رفع اسم ولدنا الدكتور عبد المغيث من القوائم المشبوهة . . تصور يقولون إنه من «القوى المضادة» . . والله لا أعرف ما حقيقة القوى المضادة، ولا أسمعها إلا فى خطب الرئيس جمال . . ليكن . . شربت القهوة بعد أن أحضروا القوائم، ومحوا اسم ولدنا عبد المغيث منها . . تنهدت فى ارتياح وحمدت الله . . وعرجت بعدذ ذلك على مسجد السيدة زينب رضى الله عنها، وقرأت لها الفاتحة وصليت الظهر . . ثم أكلت من أحد المطاعم فى الميدان السمك المشوى، واشتريت بعض الحلوى، وعدت سالمًا . . فى الواقع لم تبق إلا واقعة بسيطة أخاف أن أذكرها فلا تصدقونى . . ».

رد الفرارجى على الفور قائلاً :

- «حاشا لله يا شيخنا المحترم» .

- «كنت لا أنوى البوح بها حتى لا تُؤَوِّل» .

- «بالله عليك قلها . . » .

- «ما دامت قد أقسمت على فلا مفر . . المهم أننى حدثت عن مشكلته فى الكلية والظلم الفادح الذى وقع عليه، وشرحت القصة من أولها إلى آخرها . . أتدرى ماذا حدث؟» .

- «بالطبع لا» .

- «تغيرت وجه درويش بك، وثار ثورة عارمة ثم أمسك بالتليفون، وأمرهم بأن يحضروا المسئول الكبير فى طنطا وأمره بالحرف الواحد أن يزيل ما لحق بابننا من أضرار، ثم أكد لى أن كل شىء على ما يرام . . وأن عبد المغيث سينجح . . ».

وضحك الحاج متولى، واهتز كرشه الضخم، واحمر وجهه المكتنز، فوق عنقه السمين القصير، وقال:

- «عرفت بنجاحك قبل أن تعلن الكلية ذلك . . ».

وأشعل سيجارة، وقال مستطردًا:

- «كل شىء يأتى من فوق . . القوة هى التى تصحح الأخطاء، لا تتكلم عن اللوائح والقوانين وإجراءات التحقيق، إنها مملة طويلة، ولا فائدة منها . . ».

وأخذ نفسًا عميقًا من السيجارة ومضى قائلاً:

- «والأستاذ رئيس القسم الذى فعل تلك الفعلة الشنعاء سوف يعزل من موقعه القيادى . . هذا إذا لم يجروه على وجهه إلى المعتقل ليمسح أرضه بالخيشة [بكسر الخاء، وهى عبارة عن قطعة من القماش ينظف بها أهالى القرى منازلهم] . . ».

وقبل أن يغادر شيخ البلد الحاج متولى منزل الفرارجى، أقسم عليه أن يتناول معه الليلة طعام العشاء، وأفهمه أن عدم تلبية الدعوة إساءة لا تغتفر، مما جعل الفرارجى يتمتم فى خجل وارتباك:

- «هذا شرف كبير لى ولابنى . . » .

- «ولزوجك تفاحة أيضًا . . » .

بقى عبد المغيث ينظر إلى والده نظرات تحمل العديد من التساؤلات ، ماذا يقصد شيخ البلد؟ وما سر هذا الاندفاع منهم فى خطب ودهم؟ ولماذا هذا التعبير المفاجئ فى سلوكه نحوهم؟ لقد كان قبل ذلك لا يكترث ولا يهتم بالفرارجى وأمثاله ، وأهل القرية يعرفون أنه متغطرس مستغل ، ويعامل الناس بتعال واحتقار ، ويشارك فى عمليات السلب والنهب بالجمعية التعاونية والزراعية ، ويقتسم الغنائم المحرمة مع ذوى السلطة والنفوذ ، ويسخر المساكين لخدمته ، فضلاً عن أنه شحيح لا يجود بشىء من الزكاة المفروضة ، على الرغم من أنه يصلى ويصوم ويحج . . وهتف الدكتور عبد المغيث قائلاً :

- «ما هذا : أنا لا أفهم شيئًا» .

قال أبوه فى استسلام :

- «وهل يستطيع أحد أن يفهم شيئًا فى هذه الأيام الصعبة؟» .

قدمت تفاحة ، وقالت :

- «أنا أفهم . . » .

- «ماذا يا أمى؟ . . » .

- «هذا الرجل يرسم عليك»

- «كيف؟».

- «يريد أن يزوجك ابنته ملكة

هتف عبد المغيث:

- «لم يخطر شيء من ذلك على بالى..».

- «إنها يا ولدى جميلة وغنية جداً وأصيلة.. تمتلك كافة المؤهلات».

- «لكنى خطبت زميلتى رحاب».

- «قلبى لا يكذب».

وقال الفرارجى فى شيء من الضيق:

- «لقد جاء شاهراً كافة أسلحته التى يملكها ويا ويل من يعصى للحاج متولى أمراً.. إنه لا يرحم».

- «خلقنى الله حراً، فلن أباع أو أشترى..».

وهز الفرارجى رأسه، وقال:

- «إن بعض الظن إثم..».

ورد عبد المغيث:

- «لقد ظل يتلكلم طوال الوقت . . أفرغ كل ما فى جعبته وكأنه أعد مرافعة كاملة العناصر . . » .

وقالت تفاحة مرة ثانية :

- «لقد كان الخفراء يمنعون الناس من دخول بيتنا إلى أن ينتهى الحاج متولى من زيارته، رأيتهم بنفسى من نافذة الحجرة . . وسيتزاحمون على الباب الآن . . » .

وقد طالب أهل القرية الدكتور عبد المغيث بأن يعد العدة فوراً لاستقبال المرضى ، وفحصهم جميعًا دون تخلف ، فقد عانوا طويلاً ، وصبروا دهرًا حتى تخرج ، وهم لا يثقون إلا به ، ووجد الفرارجى أن الواجب يقتضى أن يهب ولده لتلبية رغباتهم حتى ولو أرقدهم على مصطبة فى الداخل ، فما أجملها من لحظة بالنسبة لهم ، فلأول مرة يعالجهم رجل يعرفهم ويعرفونه ، ولن يطلب منهم أجرًا ، أو يبالغ فى تشخيص أمراضهم ووصف الأدوية لهم مثلما يفعل غيره من الأطباء الذين تحركهم مطامع شتى ، أبعد ما تكون عن أدب المهنة ، وقيم الإنسانية ، وعلى الرغم من أن عبد المغيث لم يكتسب الخبرة الكافية بعد إلا أنه بدأ فى مزاولة عمله ، فلن يفعل سوى ما سيفعله غدًا فى مرحلة الامتياز أو التدريب ، وسوف لا يتصرف إلا فى حدود ما يعلم ، أما إذا استعصى عليه تشخيص فسوف يبادر إلى تحويله إلى جهة الاختصاص ، لقد فكر

فى الهروب ومغادرة القرية عائدًا للمدينة اتقاءً للحرج، وتحمل المسئولية، لكن أباه أقنعه بأن ذلك الفرار خطيئة، وعليه أن يؤدى واجبه نحو أهل قريته التى صبرت وانتظرت طويلاً لكى يتخرج، وفى النهاية قال له أبوه فى نبرات صادقة:

- «لست ابنى وحدى، ولكنك ابن لهم جميعًا..».

وقدم المرضى إليه أفواجًا أفواجًا، وانهمك عبد المغيث فى العمل، لم يكن معه غير السماعة وجهاز الضغط ومقياس الحرارة وخافض اللسان وعدد من القفازات الطبية، بالإضافة إلى عدد قليل من الضمادات والمطهرات وآلات صغيرة لخياطة الجروح، وأدوية إسعافات أولية لعلاج الصداع والمغص.

وقدم الحاج متولى وشق الزحام، وأخذ ينهر الفلاحين على تكدسهم بهذه الصورة الفاضحة، وعلى قلة ذوقهم التى لا مثيل لها، ويرميهم بالجشع لأنهم دائمًا ينكبون على كل شىء بالمجان، ولا يشبعون منه، ولو أن الدكتور عبد المغيث وضع قيمة للفحص مقدارها ربع جنيه فقط لما أتى إليه أحد، ورفض الفلاحون أن يتراجعوا، وازدادوا عددًا وحماسة، فلم يجد الحاج متولى بدًا من أن يضع بينهم بعض الخفراء لتنظيم عملية الفحص.

فى المساء أخذ الفرارجى زوجه تفاحة وابنه وقصدوا منزل شيخ البلد، كانوا يقدمون رجلاً ويؤخرون أخرى، إنها تجربة جديدة

بالنسبة لهم؛ ذلك لأنهم يدخلون أكبر بيوت البلد، وأكثرها ثراء وسلطة، وكان عبد المغيث يؤمن بأن هذه المأدبة ليست لوجه الله تعالى.. فالجميع في قرية «الحميدية» يعرفون مَنْ هو الحاج متولى، وما هي خططه وآلاعيبه وضرباته القاصمة التي لا ترحم، وهو ليس داهية أو سياسيًا بارعًا، لكنه رجل أحمق يفكر بطريقة ساذجة، لكنه يبطش بعنف، ويضرب بقوة، وهذا سر تفوقه في تحقيق أهدافه، والقوة القادرة في رأيه هي قمة الدهاء والسياسة، وهي الأسلوب الأمثل لبسط النفوذ، وتحقيق السيطرة، وبلوغ المقصود، وليس في الوسائل في نظره حلال وحرام ما دامت تحقق مصالحه، تلك المصالح التي يعتقد دائمًا أنها مشروعة..

حينما رأى عبد المغيث «ملكة» في ثوبها الحريري الأحمر، وشالها الشفاف الوردي نظر إلى عينيها المكحولتين الفاتنتين، ووجهها الأبيض المشرب بالحمرة، واتساق قوامها، فخفق قلبه، وهزه ارتباك ظاهر، وغمغم بينه وبين نفسه:

- «زهرة من الجنة تتألق في روضة إبليس».

وأفاق من ذهوله على صوت الحاج متولى يقول:

- «صافح عروسك.. إنها تمد يدها».

صافحها دون وعي بيد مرتجفة، ثم سحبت يدها في أدب، رآها تبتسم في خجل، لم يستطع أن يمحو صورتها المسيطرة من خياله،

كانت النظرة الأولى كفيلة بأن تقهر تحفظه وتردده، زغردت أمه تفاحة، قرصها زوجها الفرارجى قائلاً فى همس:

- «ماذا تفعلين يا مجنونة؟».

لم يلتفت الحاج متولى لشىء سوى ما يعتمل فى داخله:

- «ليس عيبًا أن يخطب الحاج متولى لابنته الوحيدة.. المثل الشعبى يقول: «اخطب لابنتك ولا تخطب لابنك».. وعندما تتزوج «ملكة» من رجل محترم مرموق يعرف قدرها وقدر أبيها، فإن هذا غاية المنى.. سأقيم لها فرحًا لم تشهد «الحميدية» له مثيلاً فى تاريخها الطويل..».

ثم غمز بعينه قائلاً:

- «والتى نعرفها، ونعرف أصلها وفصلها خير مليون مرة من التى..».

ردت تفاحة:

- «عين العقل.. ملكت ست الكل.. بنت سيدنا.. أليست هذه هى الحقيقة، ومن أحق بها من عبد المغيث؟» مدت المائدة العامرة بأطايب الطعام، وحظى عبد المغيث بزوجين من الحمام المحشو بالفريك، بالإضافة إلى شرائح اللحم والدجاج المشوى، وفاتحات الشهية وفواكهه شتى، وكان الحاج متولى يحرص كثيراً

على أن يضمن حديثه بعض آيات من القرآن، على الرغم من بعده عن قيم الإسلام الحقيقية، لذا قال:

- ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ..﴾ [الواقعة: ٢١].

ثم استطرد:

- ﴿وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ [الواقعة: ٢٢، ٢٣].

كان عبد المغيث يحاول جاهدًا أن يزدرد الطعام، لكنه وجد عزوفًا غريبًا عنه، ومع ذلك فقد ظل يأكل، وعلق الحاج متولى، وزوجه تجلس وتأكل صامتة إلى جواره:

- «الآن فهمت سر نحولك يا دكتور، إن الأكل من أعظم متع الدنيا.. وإلا لما ذكر الله أطايبه فى الجنة ضمن كتابة الكريم.. كل يا رجل واستمتع.. وماذا نريد من الدنيا غير زوجة صالحة وطعام هنىء..».

وأرف عبد المغيث:

- «رضى الله يا عمى..».

- «ونعْمَ بالله يا دكتور، ألا يرضى الله عن شاب بار بوالدين وبأهل بلده، وبوطنه.. أنت فى «الحميدية» القدوة والمثال»،

وامتدت يد «ملكة» بقطعة من الفرخ الرومى المسلوق الذى يتربع كالسلطان فى طبق كبير وحده، وقالت:

- «خذ هذه من يدى يا سى عبد المغيث»

رفع إليها عينين خاضعتين، ثم تناولها منها، وقذفها دفعة واحدة فى فمه، بينما قالت ملكة:

- «حاسب «لا تزور» . . ».

وانفجرت الحاج متولى ضاحكًا، والرزاذ يتطاير من فيه، وشاركه الفرارجى الضحك مجاملة وهو مسحور، وكذلك فعلت تفاحة وأم ملكة، بينما خفضت ملكة رأسها فى حياء، والابتسامة الحلوة تضىء وجهها الجميل الذى تتراقص عليه الظلال الوردية . . وشرب الحاج متولى كوبًا من الماء المثلج، ثم مسح على شاربه، وقال:

- «هديتى إليك «فيلا» وسط حديقة صغيرة على شاطئ الترعة، حولها سور لا يمكن اختراقه، أما العيادة فقد حدثتك عنها، بقى مسكن المدينة، وهذا هو الآخر أمره بسيط . . تعلم أن لى بيتًا هناك اشتريته منذ زمن . . ولسوف أبنى لك دورًا جديدًا فى الدور الثانى، لقد استخرجت الرخصة بالفعل . . ».

القرية تتحدث عن الزواج المنتظر، يقول الناس إن العروس ملاك من السماء، لكن أباها شيطان رجيم، وأمها ليس لها فى الثور ولا فى الطحين، والناس يقولون أيضًا إن الفرارجى الطيب لا حول له ولا قوة، والتيار الكاسح لن يعترضه أحد، أما الدكتور عبد المغيث فلا يعرف أحد ما يدور فى خلده وإن كانت الغالبية تعتقد أنها صفقة رابحة وفرصة لا تعوض، لكن أحد الخبثاء قال:

- «أيها الحمقى.. لقد نسيتم حضرة العمدة.. ألم تسمعوا أنه يريد «ملكة» لابنه البكر «رمضان»؟ وإذا لم يتحقق للعمدة ما يريد فستنشب حرب أهلية لا يعلم إلا الله مداها.. سوف ينتهى التحالف الأبدى بين العمدة والشيخ..».

رد أحد السامعين قائلاً:

- «رمضان فلاح قح.. يدخن الحشيش، ويعابث البنات، ولا وجه للمقارنة بينه وبين الدكتور..».

قال الأول:

- «الحاج متولى شيخ البلد أقوى و أغنى».

وضحك الثانى وقال:

- «سوف نجد متعة فى سماع حكاية جديدة من حكايات «الحميدية» نتسلى بها فى ليالينا الطويلة الكالحة..».. فى الصباح

الباكر انسل الدكتور عبد المغيث من القرية عائداً إلى المدينة، كان يريد أن يفرغ لنفسه ويفكر، فالأحداث الكبيرة منذ رسوبه، ثم محاولته الانتحار، ثم نجاحه، ثم دخول ملكة فى حياته، كل تلك الأحداث جعلته فى حيرة من أمره، وبدا له أن حياته أصبحت أشبه بالدوامة العاتية التى تدور به، فلا يعرف كيف يتماسك، أو يسكن، أو يلتقط أنفاسه.

لكن أهل القرية فوجئوا بأمر لم يألفوه من قبل، لقد بدا على الحاج متولى تغير ملحوظ، خفت صوته، وقلت شتائمه للناس وتسخيره لهم، وأخذ يتردد على المسجد فى أوقات الصلاة يصلى السنن والفرائض، ويختم الصلاة، ويستمع إلى درس ما قبل العصر، دعا الناس لاستلام زكاة المال وزكاة المزروعات . .

قالت له زوجه:

- «ماذا جرى لك؟».

- «أشعر أن قلبى ينفتح للنور».

- «أهكذا بدون أسباب أو مقدمات . . ».

- «بالتأكيد هناك أشياء كهذه يا أم ملكة . . لكنى وقفت مع نفسى وقفه لأول مرة . . لقد أعطانى الله كل ما أريد، ولعل أعظم

نعمة هي زواج ملكة التي أحبها أكثر من نفسي. . ماذا أريد من الدنيا بعد ذلك؟ لقد كبرت، وغزا الشيب رأسي، ويجب أن أعود إلى الله قبل فوات الأوان. . ولقد اعتزمت أن أحج إلى بيت الله. . ».

- «لكنك حججت مرتين قبل ذلك».

- «نعم، لكن فعلت ذلك ليقال إني الحاج متولي. . أما هذه المرة فهي خالصة لوجه الله. . ».

وصمت برهة مستغرقًا في التفكير:

- «وستكونين معي أنت وملكة. . ».

اختطفت يد زوجها وقبلتها في امتنان، وقالت:

- «لكن أنت تعلم أن الحج بالقرعة».

- «القرعة ليست لأمثالنا تعلمين أن درويش بك يستطيع أن يسير لنا الأمر. . ».

- «نحن الثلاثة؟؟».

- «أجل، حتى ولو كنا عشرة. . ».

ضحكت أم ملكة، وقالت:

- «هل نحن فى زمن «القرعة» أم زمن «القَرْع»؟» .

- «زمن الاثنين معًا . . » .

فكرت قليلاً ، ثم قالت :

- «ولماذا لا نأخذ الدكتور عبد المغيث معنا؟» .

ابتسم وقال :

- «والله إنها لفكرة طيبة ، لكن أتعتقدين أنه يوافق؟» .

- «ولم لا؟» .

- «لا شك أنه يفضل أن يحج من حر ماله . . » .

- «الفيلا . . والعيادة . . وأثاث الفرح . . ثم الحج أيضًا . . » .

هز رأسه قائلاً :

- «هذا شيء سابق لأوانه ، إن مسألة الزواج لم تحسم بصورة رسمية ، ويجب أن نعطيه الفرصة لينسحب من خطيبته الأولى بهدوء . . » .

- «لكن يا حاج سمعت أن الخطبة على الخطبة حرام . . » .

قال فى شرود :

- «لو صدق هذا ، فسيكون ذلك آخر حرام أرتكبه ، إنها ابنتى الوحيدة . . » .

وأقيمت الأفراح فى «الحميدية» بمناسبة خروج رجلها المرموق إلى حج بيت الله الحرام، وزيارة الرسول، وأقيمت الأذكار، وتبارى مشاهير المترنمين بالمواويل الشعبية، وتفننوا فى مدح الرسول، ونحرت الذبائح، واستجاب الناس بروح جديدة لهذه الموجة العارمة من الأفراح بعد أن لاحظوا أن الحاج متولى قد تاب وأناب، ولدعوة الخير استجاب، وفتح صفحة جديدة فى كتاب حياته الحافل . .



[٥]

كان عبد المغيث يشعر بأنه ثقيل الرأس، مشتت الذهن، تائه فى زحام من البشر لا يعرف له حدودًا، منشغل بما فى داخله أكثر من انشغاله بما يموج حوله من ناس وأحداث وضوضاء وأضواء وحركة، وعاوده الأرق من جديد، لكنها بضعة أيام علم عقبها أن عمله بدأ كطبيب امتياز فى مستشفى الكلية، بدأ بقسم الأمراض الباطنية، كان معه فى القسم زميله الدكتور راضى. . أما «رحاب» فقد تم توزيعها على قسم النساء والولادة، وهو قسم ملىء بالمشاكل والصراعات المحزنة بين أعضاء هيئة التدريس مما يدعو إلى الأسى والحزن، وانهمك الدكتور عبد المغيث فى عمله، كان يستغرق فيها استغراقًا يكاد تامًا، حتى يهرب من المأزق الذى وقع فيه، والدوامة تصيبه بالدوار والاضطراب القاتل، لكن كيف الهروب وهو فى قلب الحياة بأتراحها وأفراحها، وآلامها وآمالها، لأول مرة يدرك أنه مقيد بقيود خفية لا يستطيع منها فكاكًا، أين الحرية إذن؟ هل

الحرية أن يتكلم فى الفكر والسياسة والدين والقضايا الاجتماعية العديدة التى تراكمت وتشابكت؟ الحرية لا يمكن- حسبما يرى الآن - ليست فى شقشقة اللسان، وجموع الأقلام، والهتاف بالشعارات فى مدرجات الكلية وقاعاتها، إنه يفعل ذلك وأكثر منه، ومع ذلك فهو الآن كالأسير أو السجين، لكن أبواب السجن ونوافذه مفتوحة، وهو يرتمى كالمشلول على الأرض القاسية الصلبة دون أن يستطيع حراكًا، أو يخطو خطوات قليلة يخرج بها إلى الحياة والنور ليمارس حياته كما يشاء، ولم يعد قادرًا وحده أن يتحمل تلك الأعباء الثقال التى ناء بها، ولا بد أن يشاركه أحد . . لا بد . . أيذهب إلى رحاب ليفضى إليها بالواقع الأليم الذى يحترق بنبراته، وهى عاقلة مؤمنة تقية قوية الاحتمال؟ لا . . لا . . مستحيل، لو فعل ذلك فستصاب فيه بخيبة أمل كبرى، وستنقض كلماته عليها كالصاعقة، هو يعلم ذلك . . ثم ماذا يقول لها؟ هل سيطلب منها البدء فى إتمام الزواج وكتابة العقد، أم يتحلل من وعوده ويذهب إلى ابنه «متولى»؟ إنها لفجيعة كبرى أن يصدم رحاب فى عواطفها بعد سنوات الحب والوفاء الطاهرة، التى كانت تتألق بالفرح وإسعادة والمشاعر الرائعة التى لم يشهد مثيلاً لها فى أيام عمرة الجديبة التى خالطها الحرمان والجفاف والقلق . .

ولم يكن أمامه أحد يلقى أمامه بهواجسه وأحزانه سوى صديقه الحميم راضى، إنه متزن عاقل، ولديه خبرة عميقة بأمور الحياة، ثم

إنه وفىّ أمين، ولن يذيع له سرًا، أو يكتم نصحًا صادقًا، لقد كان لقاؤها الأول فى المسجد، كانا يقرآن القرآن الكريم معًا، ويستذكران التفسير، وتعاهد على العمل من أجل نشر مبادئه بالحكمة والموعظة الحسنة، لا يهدفان من وراء ذلك غير إعلاء كلمة الحق، ونشر العدل، وفضح الظلم والفساد، حتى يتحقق للناس - كل الناس- ما يحلمون به من اطمئنان وسعادة وكفاية وكرامة ومحبة، ولم يكن خافيًا على عبد المغيث أنه قد أخطأ خطأ فادحًا حينما حاول الانتحار؛ لأن ذلك لا يمكن أن يكون من سلوكيات المؤمن الحق الذى يمضى فى طريق الاستقامة، ويدعو الناس إلى الاستقامة، ويدعو الناس إلى الاقتداء به، إن ذلك العمل أوشك أن يهدم تاريخه العاطر كله، ويقضى على سمعته ومجده القديم، لكنه وقف بين زملائه معترفًا بالخطأ، وأخذ يقول والدموع تجرى على خديه:

- «أيها الإخوة، اختاروا العقوبة المناسبة، وافعلوا بى ما شئتم. . إن ما فعلته كان خطيئة كبرى، لكن تذكروا أننى بشر مثلكم ومثل كل الناس، هزتنى الفجيعة وداهمنى اليأس، فذهب عقلى أو كاد. . فعلت ما فعلت دون وعى. . كنت تحت تأثير المهدئات. . أشبه ما أكون بالمخمور. . أظلت الدنيا فى وجهى. . كنت أسير وحدى، لم أعرف فى أى طريق أسير. . كنت فى حالة يمكن أن يسقط عنى التكليف الشرعى فيها. . صدقونى. . تلك هى

الحقيقة.. ألم يقل ربنا فى كتابة الكريم: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

وانخرط عبد المغيث فى البكاء، وضج الحاضرون فى مسجد الكلية بالتكبير، وتقاطروا حوله يقبلونه ويصافحونه، ووقف أمير الجماعة وقال:

- «إن عبد المغيث يجب أن يستتاب».

وجلس الجميع، ثم أخذ الأمير يلقنه أمامهم بصوت عال:

- «تبت إلى الله، ورجعت إلى الله، وندمت على ما فعلت، وعزمت على ألا أعود إلى المعاصى أبدًا، وبرئت من كل دين يخالف دين الإسلام، وأشهد ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله».

وكررها ثلاثًا، ولم يكن عبد المغيث وحده هو الذى يرددها، وإنما شارك الحضور فى ذلك، فليس فيهم كما قال الأمير إنسان بلا خطيئة، وبعد أن أدوا الصلاة وأثناء خروجهم من المسجد، كان الجميع يصافحونه مهنيئين:

- «مبروك يا عبد المغيث.. مبروك يا عبد المغيث.. إنه ميلاد جديد».

والحقيقة أن عبد المغيث كان نادمًا أشد الندم وهذا شرط أساس من شروط التوبة، وكان يشعر بالاستحذاء والخجل، واعتبرها كبيرة من الكبائر التى ما كان يجب أن يسقط فى مستنقعها، لكنه طبيب ودرس الأمراض النفسية، وجندى فى صفوف الدعوة، ودرس الكثير من مبادئ الإسلام وشرائعه، ولم يكن لديه شك فى أن باب التوبة مفتوح على مصراعيه لكل راغب، يدخل فيه الداخلون فى الليل والنهار، ويفرح الله بخلقه النادمين العائدين التائبين، ويمنحهم دائمًا الفرصة تلو الفرصة لكى ينيبوا إليه ويستغفروه، ويستظلوا بظله، ألم يقل لهم مرشدهم إن البشر لو لم يخطئوا لأتى الله بخلق جديد ليخطئوا كى يغفر الله لهم.

وها هو اليوم عبد المغيث يدخل فى تجربة جديدة مُرة المذاق، تعود به مرة أخرى إلى جحيم القلق والأرق والتمزق، وشرح لصديقه الدكتور راضى كل ما جرى بعد أن تكتمه بضعه أيام، ثم سأله:

- «أنجدنى يا راضى، أنا فى ورطة».

قال راضى فى غضب:

- «إنك امرؤ ضعيف الإرادة».

- «ما جئتك لتؤنبنى، بل لتنير لى الطريق».

- «كيف وأنت مغمض العينين!» .

- «ألم تصبك الحيرة أبدًا؟» .

- «دائمًا يحدث ذلك» .

- «فكيف كنت تتصرف؟» .

- «أستخير الله . . ثم أختار وأعزم . . ثم أصدر قراری علانية . . وأفعل على الفور . . » .

- «وما هو القرار الذى تراه مناسبًا لى؟» .

- «أنت الذى تعرفه» .

- «لا تزدنى عذابًا» .

- «أنت تريد كل شیء جاهزًا ، يقدم لك على طبق من الفضة» .

- «أشعر بالعجز وحدى . . » .

- «ولن تشفى من عجزك ، بقرص من الدواء ، أو بصراخ الأطفال وبكائهم . أو بالهروب من الدنيا . . » .

وساد صمت شديد الوطأة ، وأخيرًا قال راضى :

- «أتحب رحاب أم تحب ملكة؟» .

- «لا أعرف . . » .

- «لا بد أن تعرف . . » . .

- «حسنًا، أحب الاثنين» .

- «هذا جشع وطمع . . بل أنانية» .

- «بل أقول الحقيقة . . » .

- «الحقيقة أن لعابك يسيل من أجل مال ملكة، وتعشق رحاب النقية الطاهرة المثقفة التى تؤمن بما تؤمن به أنت . . » .

- «إنهما يستويان فى النقاء والطهارة والجمال» .

- «ويختلفان فى الثقافة والثراء . . » .

- «ليكن، فماذا تشير علىّ؟» .

- «آه يا عبد المغيث : لسوف تزداد شقاء على شقائك، ومن يدرى؟ قد تلجأ مرة أخرى للأقراص المهدئة، ثم تفكر فى الانتحار . . » .

هب عبد المغيث واقفًا، وقال فى غضب :

- «هذه إهانة لا أقبلها . . » .

هتف راضى بصوت أجش :

- «اجلس . . ألم تسمع المثل الشعبى الذى يقول : يا بخت من بكانى وبكى الناس على، ولا ضحكنى وضحك الناس على؟» .

- «سمعته . . » .

- «وفى رأيى أنك لن تفيق إلا بعد أن أضربك علقة ساخنة . . » .

ووقف راضى ، ثم أخذ يتجول فى الغرفة مفتشًا ، قال له عبد المغيث :

- «ماذا تفعل؟» .

- «أبحث عن عصا» .

جذبه عبد المغيث من كمه ، وقال :

- «أنا لست طفلاً» .

- «تتصرف كطفل ، تريد أن تجمع بين يديك كل شىء ، المال والشهرة والجمال والعلم ، وأنى لعلى يقين أنك لو بقيت التقيت بامرأة ثالثة متميزة لأصبحت تريد الزواج من ثلاثة . . ألا يفعل ذلك سوى الأطفال . . إنهم يتصارعون ويبكون من أجل الاستئثار بكل شىء . . والدنيا يا صديقى الحميم لن يستقيم حالها على هذا النحو . . إذا لم تفق فستكون أشقى الأشقياء . . » .

قال عبد المغيث فى ضراعة :

- «اختر لى . . أنا أثق بك ، لم أعد أصلح حاليًا للاختيار السليم ، وسأنفذ ما تقول» .

- «لن تنفذ . . أعلم ذلك، ولهذا أوفر على نفسى وعليك الكلام . . ».

- «تكلم، وإلا قذفت بنفسى من النافذة».

- «ألم أقل لك أن لا يستبعد أن تفعلها مرة أخرى؟».

صاح بأعلى صوته:

- «تكلم يا راضى . . ».

أدرك راضى أنه يوشك أن ينهار أو ينفجر، فبادر قائلاً:

- «تزوج رحاب . . ».

ارتمى عبد المغيث على المقعد وهو يلهث، وأخذ يجفف عرقه . . ثم أطرق برأسه، وقال بصوت خفيض:

- « نعم . . إنها الأميرة التى تجلس على عرش قلبى، ولا أعتقد أن فى الدنيا بطولها وعرضها مثلها . . ».

ابتسم راضى، وقال:

- «تبالغ دائمًا . . إنها امرأة فاضلة على أى حال».

- «لا أتصور كيف تكون لغيرى».

- «وماذا تفعل إذا تحول قلبها، وتزوجت من غيرك؟».

هتف فى غضب:

- «أقتلها».

- «وهل هذا في شرع الله؟».

- «للحب شريعته.. إن الخيانة ليس..».

صرخ راضى حانقًا:

- «كفى أيها الداعية الضال.. ليس للحب شريعة خاصة، إن شريعة الله هى وحدها المهيمنة على قلوب وعقول المؤمنين.. إن ما تسميه شريعة الحب والهوى.. نعم.. الهوى.. نعم.. الهوى.. ألم تسمع قول الله فى كتابة الكريم وهو يصف أهل الهوى: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١].. من قال إن امرأة تختار بمحض إرادتها شريك حياتها- وهى حرة - توصف بالخيانة، وتستحق القتل؛ إنك تفعل ما يفعله زبانية عبد الناصر من الطغاة والمنحرفين، ترى لو كانت بيدك سلطة، أكنت تخطف الفنانات والجميلات لتستأثر بهن، وتجلد المعارضين وتزهق أرواحهم.. إنك لم تنضج بعد، ولم تكن ناضجًا فى أى يوم من الأيام..».

وران عليهما الصمت من جديد..

قال راضى:

- «أريد أن أخرج من هنا».

- «هل كرهتنى؟».

- «لا . . بل أشفق عليك، إننى حزين من أجلك . . ».

- «وكيف تخرج وتتركنى وحدى؟».

- «لم تعد قاصراً يا عبد المغيث، أنت رجل مسئول».

- «لا تتركنى».

- «لماذا؟».

- «أشعر بالخوف».

- «كيف، والله معك».

نظر إليه عبد المغيث فى أسى، وما هى إلا لحظات حتى كان راضى يهبط الدرج ولم يكن لديه فكرة محدودة عن الجهة التى يقصدها، لكنه ما إن بلغ الشارع حتى قرر أن يذهب إلى بيت «أطباء الامتياز» لكى يكون على استعداد لتلبية أى دعوة لكى يساهم مع زملائه فى قسم «الحوادث» أو فى قاعات المرضى بالقسم الداخلى.

ooo

[٦]

أصبح زواج عبد المغيث هو الحديث بل الحدث الكبير على ألسنة أهل «الحميدية» يتناوله الرجال والنساء، والفتيان والفتيات فى عمر الزهور، واختلف الناس بين مؤيد ومعارض وكأن الأمر قضية قومية، ولو استطاعوا أن يجروا استفتاء كتلك الاستفتاءات التى يحتفل بها عند إعادة انتخاب الرئيس لفعلوا حتى يسكت الخلاف؛ لأنه سيكون استفتاء من نوع آخر لا تزييف فيه ولا إكراه؛ ذلك لأن النتيجة لم تكون بالتأكيد تسعة وتسعين بالمائة ولكنها ستكون على الغالب متراوحة بين أربعين وستين أو أقل أو أكثر بالمائة؛ لأن الناس فى هذه الحالة سيكونون أحرارًا، لا يحركهم وعد أو وعيد، حيث إن دافع التأييد أو المعارضة في هذا الاستفتاء هو حب عبد المغيث ابن القرية المخلص الوفى الذى يتمنى له الجميع السعادة والنجاح، والذى سيبقى متربعًا على عرض القلوب مهما كانت نتيجة ذلك الاستفتاء.. ومن الطبيعى أن ينقسم الناس إلى فريقين لا ثالث لهما، الأول يرى أن البعد عن الحاج متولى غنيمة؛ لأنه

نوع من الرجال يختلف أشد الاختلاف عن عبد المغيث . . وتاريخه يشهد له بالخسة والنذالة، على الرغم هذه الأيام، وفى هذا يقول فقيه القرية الذى تخصص فى تحفيظ القرآن للصبية «الخبيثات للخبيثين» ويكمل السامعون «والطيبات للطيبين»، ويذكرهم بأنه كلام الله سبحانه الذى لا يمكن أن يعارضه أحد وإلا وقع فى شراك الكفر، لكن بعض المنصفين من المحاورين يعلقون على ذلك قائلين: «هذا صحيح، لكن إذا كان الحاج متولى خبيثًا، فإن ابنته «ملكة» ليست كذلك، ولذا ينطبق عليها قول الله والطيبات للطيبين»، ثم يخرج الحوار إلى مسار آخر عند الفريق الثانى الذى يؤيد هذا الزواج، ويرى أن فيه نفعًا كبيرًا لعبد المغيث الجديد بكل خير، فإذا ما مات الحاج متولى إن شاء الله آلت الثروة إلى عبد المغيث بطريق أو بآخر ولن يرث إخوة متولى شيئًا منها؛ لأن الشقاق قائم بينهم منذ زمن بعيد، ولا شك أن عبد المغيث -حسبما يظنون- سيرد إلى كل مظلوم حقه، فهو لا يرضى إلا بالمال الحلال، وهؤلاء القوم المؤيدون للزواج من «ملكة» يجاهرون دون خجل بالقول بأن الزواج فيه جانب من المصلحة، والحياة فى هذه الأيام أصبحت علاقاتها قائمة على المصالح، مثل علاقات الدول فى العالم. . قالت امرأة متلفحة بالسواد:

- «يا واخد القرد على ماله يروح المال، ويبقى القرد على حاله».

لكزتها صاحبتها التى تسير إلى جوارها قائلة :

- «لكن «ملكة» غزال، وليس فى البلدة عروس مثلها»، ومما لا شك فيه أن صعوبة الموقف نشأت من التناقض الكبير بين الحاج متولى وابنته ملكة، فهو - كما يعتقد البعض - شيطان مريد، لكن ابنته ملاك نبيل، وهل تؤخذ الابنه بجريرة أبيها؟ ألم يقل ربنا ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ الأنعام: ١٦٤]، ويقول أيضًا جل من قائل: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثر: ٣٨]، وجاء رجل من أهل الذكر يقول:

- «يا أهل الحميدية، أنتم دائمًا تتصفون بقصر النظر وضيق الأفق؛ لأنكم تعيشون فى عالم مغلق بين البهائم والحمير، هل نسيتم أن عبد المغيث قد خطب قبل ذلك إحدى زميلاته فى الكلية، وأنها فتاة صالحة - كما يقولون - وعلى جانب كبير من الجمال والأدب؟ فما موقع هذه الفتاة من الإعراب؟» سأل أحد الفلاحين:

- «لا نفهم موقعها من الإعراب».

- «لأنك جاهل، هل فاعل أم مفعول به أم حال أم صفة، أم مبتدأ أم خبر أم نائب فاعل وهلم جرآ . . ».

ضحك الجالسون، وقال أحد المازحين:

- «هى ممنوعة من الصرف».

وقال آخر وهو شاب أزهرى:

- «بل مفعول به».

وشارك زميله قائلاً:

- «بل ضمير مستتر تقديره «هى» . . ».

وأخذ بعض الطلبة يصفقون، ويترنمون بصوت رخيم بألفية ابن مالك، وكانوا يتمايلون ويتراقصون، وهم ينشدون:

كلامنا لفظ مفيد كاستقم

اسم وفعل ثم حرف الكلم

بالجر والتنوين والندا وألْ

ومسند للاسم تمييز حصل

لم يرق الوضع للمحترمين من الحضور، فتركهم وانصرف كل من لا يرى فى الموضوع مجالاً للسخرية والمزاح .

ومن جانب آخر حدث لقاء مدبر بين العمدة والحاج متولى فى أحد الأمكنة المحايدة، ولم يجلس معهم سوى رمضان ابن العمدة، كان اللقاء يسوده التوتر قبل أن يبدأ الحديث، فالعمدة وجهه شاحب وشفته وكذلك الشارب المفتول فوقها يرتعشان، ورمضان يجلس هو الآخر متكئًا على «بندقية» فى وضع

الاستعداد، أما الحاج متولى فقد حاول أن يتظاهر بالهدوء وبرود الأعصاب، مع أن الطبيب لو قاس له الضغط الدموى الآن لوجده مرتفعًا ولو حلل له نسبة السكر فى الدم لجاءت فوق المعدل المعتاد، قال العمدة «الحاج ماجد العشرى»:

- «هل صحيح ما سمعته يا حاج متولى؟».

- «وماذا سمعت يا حضرة العمدة..».

- «أنت تعرف ماذا أقصد.. لكن يجب أن تتذكر أن بيننا صلة رحم.. أبناء عمومة.. هه.. وقد عشنا نحافظ على هذا الرباط المقدس منذ الآباء والأجداد، وليس من فعل الرجال أن تفسد هذه العلاقة امرأة.. حتى ولو كانت مريم ابنه عمران..».

- «صلة الرحم باقية، ولن يهدرها إلا خائن».

- «سمعنا أن ابنتك ستتزوج من عبد المغيث..».

- «مجرد تفكير..».

- «حتى التفكير فى ذلك جريمة».

- «ولم؟».

- «لأنى خطبتها لولدى رمضان وهو أحق بها».

- «الأمر لا يتعلق بى وحدى يا عمدة، وأنا لا أزوج ابنتى بالإكراه».

- «إذن هى ترفض ولدى» .

- «ربما . . » .

- «عندئذ تكون عقوبتها واجبة» .

- «كيف؟» .

صاح العمدة فى غضب :

- «ألا تعرف؟ القتل . . » .

ورفع رمضان بندقيته ، ثم دك بها الأرض فى عصبية مما لفت نظر الحاج متولى الذى نظر إليه فى احتقار ، ثم انصرف عنه إلى العمدة ليقول :

- «الزمن غير الزمن يا عمدة» .

- «هل أفسدت الأيام الأخلاق؟» .

- «بل الثورة هى التى غيرت الأفكار . . » .

صاح العمدة :

- «إلى الأسوأ» .

- «حاذر ، هذا كلام تحاسب عليه ، وأنتم مسئول وجزء من الحكومة . . » .

لم يكترث العمدة لما يقول ، وأردف :

- «كيف تسمح لنفسك، وأنت ابن الأكابر والأصول أن تصاهر الفرارجى، وهو لا يعدو أن يكون واحدًا من خدمنا..».

- «نحن فى عهد الاشتراكية يا عمدة».

زمجر العمدة:

- «لا اشتركية ولا مهلبية، هذه الكلمات الفارغة لن تغير من حقيقة الناس.. ما أكثر ما يقال.. ثم تمر أيام أو سنوات وتعصف الريح بكل شيء..».

كان جو المناقشة حادًا صاخبًا، ولولا بقية من عقل ومودة، لانقلب الحوار إلى معركة دامية، ولاشتعلت النيران، وأحرقت المكان، بل أحرقت القرية بأسرها.

وكان العمدة واثقًا أن النساء وراء كل بلية، وسر كل مفسدة، وهذا لا يحدث إلا فى غيبة الحزم والحسم من الرجال، كما يثق أن زواج امرأة أمر تافه لا يصح أن يثير الفتن، ويخلق الاضطرابات، ويلهث الصراعات.

قال العمدة وهو يجفف عرقه:

- «تذكر يا متولى أن حواء هى التى أخرجت أبانا آدم من الجنة».

- «أعلم..».

- «وأن امرأة هى التى دفعت قابيل ليقتل أخاه هابيل» .

- «أعلم . . » .

- «وأن ملكة فرنسا هى التى حطمت عرش زوجها ، ثم ذبحوها وذبحوا زوجها الملك . . » .

- «لا أعلم» .

- «وامرأة هى التى أوعزت بقتل نبى الله يحيى بن زكريا» .

- «لكنك نسيت يا عمدة آلاف النساء والفضليات . . خلق الله الصالحات والطالحات . . وكذلك الرجال . . » .

- «يجب أن تفهم ما أقول يا متولى . . » .

صمت متولى برهة مفكرًا وتنهد قائلاً :

- «أمهلنى يا عمدة» .

- «أريد وعدًا قاطعًا . . » .

- «قلت أعطنى فرصة حتى أرى ابنتى» .

- «أنا واثق أن ابنتك مؤدبة ، ولن تفعل إلا ما تمليه عليه» .

- «سنرى» .

- «فلتقمع ابنتك هواها ، حتى تسعد أباها» .

- «لم تتحقق لى السعادة قط فى حياتى . . » .

- «برغم ما تملك من مال وسلطة وجاه؟ لقد تخليت لك عن كل شيء، فأنت العمدة الحقيقي.. ذلك لأني أحببتك ووثقت بك..».

هز متولي رأسه قائلاً:

- «نحن نملك كل شيء إلا السعادة، للأسف لم أدرك ذلك إلا أخيراً، بعد أن أوشك العمر أن يولي، آه لكم تمنيت أن أولد من جديد..».

- «سر شقائك تعلقك بتحقيق المستحيلات».

- «لم يكن هناك مستحيل بالنسبة لي إلا السعادة».

- «ذلك لأنها وهمٌ..».

- «لكني أعرفها.. ذقتها لحظات من عمري.. ثم سرعان ما كانت تفر، لم أستطع استبقاءها.. هناك خلق كثير ينعمون بها.. أراها على وجوههم، وألحظها في نبرات أصواتهم، وأستشعرها وهم يكدحون..».

وصمت متولي برهة، وعاد يقول:

- «لماذا لا تأتي وتحج معي؟ ربما نجد السعادة هناك..».

- لا مانع عندي إذا وافقت على زواج ملكة من رمضان..».

- «أنت لا تريد أن تفهم يا عمدة . . » .

- «وأنت لا تريد أن تطرد الشيطان وتحل المشكلة . . » .

وانطلق صوت رمضان كنعيق غراب :

- «أنا أستطيع أن أحل المشكلة بسلاحى هذا . . » .

اكفهر وجه الحاج متولى ، ثم نظر إليه باحتقار والتفت إلى العمدة قائلاً :

- «أتريد أن تزوج ابنتى لهذا الأحمق؟ . . » .

ابتسم العمدة ، وقال :

- «لا عليك من هذا الثور» .

ثم قال لابنه :

- «كن مودبًا يا رمضان . . إنه بمثابة عمك . . كأبيك تمامًا . . » .

- «لقد ضاق صدرى ، ونفذ صبرى يا إبى الحاج» .

- «ذلك لأن ملكة تساوى ثقلها ذهبًا ، وهى منك وأنت منها . . أليست بنت الأصول أبًا وأمًا . . » .

لم يخف أمر هذه المقابلة المهمة على أهل قرية «الحميدية» فالخفراء وغيرهم أذاعوا الخبر فى كل مكان ، صحيح أنهم سمعوا المناقشات العالية الحادة ، لكن أحدًا لم يتبين تفاصيلها بالكامل ، لم

يصل إليهم غير الضجيج والصياح، غير أن خيال الناس كفيل بأن يختلق كلمات ووقائع، وهى - وإن كانت كاذبة - إلا أنها تحمل مضمون الخلاف القائم بين العمدة وشيخ البلد، وأن ذلك الخلاف لم يحسم بعد، ومن ثم فإن الاحتمالات المرعبة لم تزل قائمة.

كان الفرارجى يجلس مهمومًا في بيته بعد أن سمع ما سمع حوله مقابلة العمدة وشيخ البلد، قالت تفاحة:

- «يقولون إن الحكومة تقبض على الناس وترميهم في السجن.. أمن المعقول أن يستطيع أحد قتل الرئيس؟؟ إنه محصن. ولن يستطيع أن يأخذه إلا خالقه..».

- «حتى أنت يا تفاحة تتكلمين فى السياسة؟».

- «من قال ذلك؟ مالى وللسياسة؟؟ أقول لك يحبسون الناس، ومن رأيى أن نستدعى عبد المغيث، ثم نضعه فى حجرته، ونغلقها عليه بالمفتاح حتى تمر الأزمة.. إنه خلاصة شقاء السنين الطويلة..».

●●●

[٧]

توجه الحاج متولى إلى مدينة طنطا ومعه زوجه وابنته «ملكة».

كان عليه أن يقوم بالاستعدادات التى يراها ضرورية قبل السفر إلى الحجاز، وكان يبدو سعيداً منتعشًا، لكنه قال لزوجه وهما يسيران جنبًا إلى جنب وخلفهما ابنته:

- «لو وهبنى الله ولداً لما استطاع رمضان ابن العمدة أن يرفع صوته فى وجهى».

قالت مخففة عنه:

- «أنت أقوى من الجميع منفرداً، وفى يدك سلطة تعلو على سلطانهم، لو أردت خلع العمدة لخلعته، لكنك تصل الرحم، وتحفظ الود، وتريد أن يسود السلام..».

وتقدمت ملكة خطوة منهما، وقالت وهى تلوح بيدها:

- «أنا بمائة رجل..».

ابتسم أبوها وأمسك بيدها فى حنان، وقال:

- «أنت فارسة، لكن. . ».

- «ماذا يا أبتى؟».

- «فى معارك الهوى والغرام. . ».

تضرجت وجنتاها بالخجل ثم قالت:

- «إن عبد المغيث ابنك أيضًا، وهل نسيت أنه من زعماء الطلبة الوطنيين؟».

قال وهو يتلفت بحذر:

- «اخفضى صوتك؛ لأنهم يسجنون الناس الآن وفى كل ناحية يقف مخبر، والأبناء يتجسسون على الآباء، لقد فشا الغدر والخيانة، والناس يتقربون إلى السلطة بالخبائث. . أنا أعرفهم لأنى واحد منهم، وسأحج لأتطهر. . ».

وشردت ملكة لحظات وهى ماضية مع أبيها، ثم قالت فى قلق:

- «أتعتقد يا أبى أن هناك خطرًا يتهدد عبد المغيث».

- «ليس هناك أدنى خطر، وقد أوصيت قريبنا درويش بك به خيرًا، فى زيارتى الأخيرة له أخذت معى كمية كبيرة من السمن البلدى والقشدة والفطير المشلتت والحمام والفراخ الرومية، وعسل النحل، وما لذ وطاب. . ».

ضحكت ملكة، وقالت:

- «إنهم مثل القطط يأكلون وينكرون».

قال فى ثقة:

- «وعبد المغيث ولد عاقل، ولا يعادى أحدًا..».

قصد الحاج متولى مسكن عبد المغيث المتواضع، ومن حسن حظه أن وجده نائمًا بالداخل؛ لأنه كان يعمل أول الليل، ومن حقه الراحة أثناء النهار، وقام عبد المغيث يفرك عينيه فى دهشة، وسرعان ما استعاد يقظته ووقاره، فأخذ يرحب بهم، وبعد أن اغتسل قصد إلى المطبخ ليعد الشاى، لكن ملكة فهمت ما ينويه، فأسرعت إليه راجية أن يترك هذه المهمة لها، فتنحى وهو غارق فى خجله، نظر إلى وجهها، فرأى السعادة ترتسم على ملامحها الجميلة، وتشرق من عينيها الجميلتين اللتين تفضيان بالحيوية والحنان، هتف فى أعماقه «يا ويحى.. إننى أحترق بين نارين» وهرب إلى حيث يجلس الحاج متولى وزوجه على مقاعد خشبية، وكراسى من الخيزران فى الصالة شبه الجرداء، وأخذ يرحب بعبارات متلعثمة.

لم يخف ذلك على الحاج متولى، الذى أخذ يسأله عن عمله الجديد، ومدى ارتياحه له، ثم أخذ يسأله عن رأى الأطباء وطلبة

الكلية عما يحدث من اعتقالات واضطرابات سياسية فى هذه الأيام، فقال الدكتور عبد المغيث:

- «بعد أن تخرجت طبيبًا، لم يعد لدى الحماسة القديمة للمشاركة فى العمل السياسى . . ».

- «صدقت يابنى، من اقترب من النار لحق الخطر، وليس لنا من الأمر شىء، البلد بلدهم، وليفعلوا ما يشاءون . . ».

هز عبد المغيث رأسه، وقال:

- «انعدمت الثقة بين الجميع، الزملاء خائفون، ويعبرون بكلمات وأفكار أبعد ما تكون عما فى داخلهم، وعن الحقيقة هذا زمن الخوف والكذب . . لقد ضاع الحلم الذى حلمنا به طويلاً قبل الثورة يا عمى . . ».

وأخذ الحاج متولى يشرح له كيف أنه يعرف ذلك وأكثر منه كمسئول، وأنه لم يعد يرضى بما يجرى على الساحة، لكنه مضطر اضطرارًا أن يسير فى الركب، ويماشى الجو، حتى «يعيش»، وحتى يظل محتفظًا «بمكانته» كشيخ للبلد، وإذا لم يفعل ذلك فسيخسر كل شىء، ويفقد هيبته، وتدوسه الأقدام، وهناك ألف رجل غيره على استعداد تام لكى يؤدوا الدور الذى يطلب منهم، دون وازع من خلق أو ضمير، شرح عبد المغيث كيف أن الكثيرين من الناس

قد هجروا المساجد، وأقاموا الصلاة فى بيوتهم حتى لا تلحق بهم شبهة التدين، أو الانتماء لجماعات الإسلام، كما بادر البعض بإحراق بعض الكتب التى تعالج قضايا إسلامية ذات صلة بمنهج الدين فى الفكر والأخلاق والسياسة والاقتصاد وهو أمر لم يحدث على هذا النحو من قبل، حتى فى أيام الاستعمار الإنجليزى، ولعل علاقتنا بروسيا الشيوعية، وتدخلها فى أمورنا، له علاقة بما يجرى هنا..

وقال الحاج متولى معلقًا على ذلك:

- «إنهم يعطوننا السلاح، ويقدمون لنا الفروض والمعونات، ولولا ذلك يا ولدى لسقتنا أمريكا وإسرائيل الذل».

- «وهل هذا هو الحل الوحيد؟».

- «لا أعلم يا عبد المغيث، فليس من شأننا أن نفكر فى حلول غير التى يراها الرئيس، وهو رجل مخلص حسبما يعتقد الناس، ومحب لبلده..».

ضحك عبد المغيث، وقال:

- «أتعرف قصة الدبة التى قتلت صاحبها حينما أرادت أن تذب عن وجهه ذبابة وهو نائم...».

- «أعرفها..».

ودخلت فى هذه اللحظة «ملكة» وهى تحمل الشاى وأسرعت قائلة :

- «قذفت الذبابة بحجر كبير، فحطم رأس صاحبها الذى تحبه . . » .

وابتسم أبوها :

- «تسترقين السمع إذن» .

- «أنا فى المطبخ، لكن أذنى وروحى معكم» .

نظرت إلى عبد المغيث، والتقت العينان، فقام وتناول منها الشاى ليقدمه بنفسه، بينما تنهدت أمها فى ملل، وقالت :

- «أريد أن أزور شيخ العرب» .

هز الحاج متولى رأسه، وقال :

- «الله الله يا بدوى، جا باليسرى . . » .

وضحكوا جميعًا، بينما علق عبد المغيث قائلاً :

- «وكلمة «اليسرى» فسرها البعض بأنها محرفة عن كلمة «الأسرى»؛ ذلك لأن السيد البدوى شارك فى الحروب الصليبية التى اتجهت إلى دمياط والمقصورة فى حملة لويس التاسع ملك فرنسا، أيام الملكة شجرة الدر، وخرج السيد البدوى وإخوانه فى

جمع غفير من المسلحين، وحرروا الأسرى المحبوسين فى قلعة دمياط، بينما يرى آخرون أن «اليسرى» تعنى البركة واليسر والفرج والرزق الواسع . . والله أعلم . . » .

طافوا بالأسواق، اشتروا الكثير من الأقشمة والأوانى والأدوات والأطعمة المعلبة، وكان أول شىء اشتروه ملابس الإحرام، وعندما زغردت أم ملكة، وقال لها زوجها: «احتشمى يا امرأة . . أنت زوج شيخ بلد، وابنتك خطيبة دكتور محترم»، وكانت ملكة تحرص على السير إلى جوار الدكتور عبد المغيث، وتتعمد الاحتكاك به، وتجاذبه أطراف الأحاديث، وهمست فى أذنه قائلة: «لماذا لا تضع يدك فى يدى . . «أنجاجيه» مثلما يقولون؟» شعر بالخجل، ثم نظر إلى أبيها، وقال لها: «ألا تخافين من أبيك» بادرت بوضع يدها فى يده قائلة: «أبى يحبك، ولا يفكر فى أن يجرح شعورك» ودارت الأفكار فى رأسه، بالأمس أكد لصديقه الدكتور راضى أنه لن يتزوج إلا رحاب، واليوم يتصرف وكأنه ملكة هى خطيبته الوحيدة، إن قوى خفية تحركه هنا وهناك وكأنه بلا إرادة، الآن تملأ عليه ملكة حياته وكيانه، يجد إلى جوارها الأنس والراحة، ولا يألف أيضًا من أن يضع يده فى يدها، وتتلامس الأنامل، أليس هذا حرامًا، الشيطان يلهو به مرة أخرى، أين إرادته وأين دينه، سحب يده بهدوء ليقهر ذلك الشيطان، عادت لتمسك بيده من جديد عاتبة «لماذا تفلت يدك؟ ألست

خطيبتك؟» استسلم مرة أخرى موهمًا نفسه أنه لابد أن يفعل ذلك من باب اللياقة، وفى محل كبير للأقشمة، أمر الحاج متولى البائع بأن يقيس ثلاثة أمتار من الصوف الإنجليزى الفاخر، وتناولها منه، ثم اتجه إلى عبد المغيث قائلاً:

- «لتقبل هذه الهدية المتواضعة من خطيبتك . . وأنا لا يمكن أن أرد لها طلبًا . . » .

طأطأت ملكة رأسها فى خجل، وتوردت وجنتاها، وابتسمت:

قال عبد المغيث:

- «هذا كثير . . » .

- «أنت الابن الذى حرمنى الله منه» .

وترقرقت دمعة فى عين الحاج متولى، وقال:

- «إن أروع سعادة يشعر بها الأب حينما يجد أبناءه سعداء . . هل تستطيع تصور ذلك يا عبد المغيث . . كان قلقى الأعظم على ابنتى، أما وأن زرقها الله برجل مثلك فإنى أستطيع أن أموت هانئ البال . . . » .

اختطفت «ملكة» يد أبيها وقبلتها فى حرارة، وقالت:

- «أطال الله عمرك يا أبى» .

ولا يدرى عبد المغيث كيف حدث ما حدث بعد ذلك، فقد تناول يد الحاج متولى دون تفكير، وقبّلها مثل ما فعلت ملكة، فاحتضنه الحاج متولى وأخذ يعانقه ويقبله فى حرارة.. ويبكى.. كان الحاج متولى يبكى.. قالت زوجة:

- «لم أرك تبكى من قبل».

- «ذلك لأنى سعيد.. سعيد جداً.. وإذا أنا مت فى الأراضى الحجازية، فاعلموا أننى مت سعيداً، وأن الله قد قبل توبتى، وأنه قد حقق لى فى الدنيا كل ما كنت أريد وأكثر منه..».

كانوا قد استأجروا سيارة يتنقلون بها، ويجمعون فيها ما اشتروه من متاع وأدوات، وأخذوا يتجولون فى شارع الخان وشارع البورصة والمحافظة وشارع البحر، ويزورن الأولياء، ويوزعون الهبات والصدقات، والسعادة تغمر الجميع، وكان الوقت يمر بهم دون أن يشعروا به، وعند الظهيرة مال الحاج متولى على أحد المطاعم الفاخرة التى يعرفها من زمن بعيد، قائلاً:

- «هنا ستأكلون أروع كباب وكفتة».

أكلوا بشهية، ونسى الحاج متولى القواعد الصحية التى ألزمه بها الطبيب، وأخذت ملكة تغرز الشوكة فى قطع اللحم ثم ترفعها إلى فم خطيبها، قال أبوها فى غضب مفتعل:

- «احتشمى يا بنت، نحن فلاحون، ولسنا من أولاد البندر».

ابتسمت ملكة، ثم غرزت الشوكة مرة أخرى، لكنها رفعت قطعة اللحم هذه المرة إلى فم أبيها، الذى أخذ يتكلم وفمه محشو بالطعام:

- «أتريدين أن تسدى فمى يا بنت متولى.. أم هى رشوة؟؟».

بعد الأكل تناولوا الفواكة والحلوى والمشروبات الغازية، وعلق الحاج متولى على المشروبات الغازية قائلاً:

- «لقد أصبحت رديئة جداً هذه الأيام.. أين الكوكا كولا والبيسى التى كنا نشربها أيام زمان؟ لكننا مطالبون بتشجيع المنتجات الوطنية، واحترام نظام المقاطعة لبضائع الشركات التى تتعامل مع إسرائيل، أنا واثق أن الكبار يشربون أنواعًا أفخم من هذا بكثير..».

قالت «ملكة»:

- «لا تتكلم فى السياسية يا أبى، الحيطان لها آذان وأنت رجل من رجال الاتحاد الاشتراكى..».

تلفت الحاج متولى يمنة ويسرة ثم قال هامسًا:

- «طظ فى الاتحاد، وفى الاشتراكى، وفى..».

قاطعته ابنته قائلة:

- «كفى يا أبى وإلا رحنا فى داهية . . » .

استعاذ الحاج من الشيطان الرجيم، وقال :

- «لا بد أن «نحبس» بكوب من الشاى الثقيل . . » .

- «إنه يرفع الضغط يا أبى ، أليس كذلك يا عبد المغيث . . » .

رد أبوها قائلاً :

- «والله ما رفع ضغطى إلا التوتر والهموم والندم . . » .

عندما غادروا المطعم قالت ملكة :

- «لم يبق إلا شىء واحد» .

قالوا : - «ما هو؟» .

- «أن نزور المستشفى الذى يعمل فيه الدكتور عبد المغيث ، كى أراه وهو يلبس المعطف الأبيض ، والسماعة تتدلى من عنقه ، ويمر بين أسرة المرضى ويفحصهم . . » .

ابتسم الدكتور قائلاً : «بسيطة» .

.فى قسم الأمراض الباطنية حيث تمضى الأمور هادئة بعد العصر ، وليس هناك أساتذته أو أخصائيون فى هذا الوقت ، كان عبد المغيث يجلس فى مكتب صغير يضم الحاج متولى وزوجه وابنته ، ويشربون القهوة ويتحدثون عن المرضى والأمراض

والمستشفيات، ويوجه الحاج متولى إلى الطبيب العديد من الأسئلة حول مرض السكر وارتفاع ضغط الدم، وشعر الحاج بالارتياح حينما أكد له عبد المغيث أنهما مرضان يسهل السيطرة عليهما بالدواء وتنظيم الغذاء، وتنسيق نشاطات العمل اليومى، وتجنب الانفعالات الضارة.

ومدت ملكة يدها على المكتب بعد أن عرّت ذراعها قائلة:

- «قس لى الضغط يا دكتور».

نظر عبد المغيث إلى أبيها فى حيرة، قال الأب:

- «قسه لها.. دلع بنات».

قالت ملكة وهى ترى وتحس بضغط الجهاز المنتفخ فى ذراعها:

- «آى.. آى.. إنه يؤلمنى».

قال عبد المغيث:

الضغط ممتاز.. عادى جدًا.. مائة وعشرة على سبعين..»، وأخذ الدكتور يسرب الهواء المضغوط من الجهاز رويدًا رويدًا، وبدأ فى فك الرباط حول ذراعها، وعندئذ دخلت رحاب فجأة، وعلى وجهها ابتسامة بريئة، ثم ألقت السلام، وبعدها قالت: «لقد جئت مبكرًا اليوم».

غرق عبد المغيث فى قلقه وارتباكه، وأخذ عرقه يتصبب، وبدا وجهه شاحبًا على غير العادة، مما لفت نظرها ونظر الحاضرين، وقالت رحاب وهى تهم بمغادرة الغرفة:

- «لقد اقتحمت مجلسكم دون استئذان، اسمحوا لى بالعودة إلى قسم أمراض النساء والولادة..».

هب الحاج متولى واقفًا، وقال:

- «هذا لا يليق، ثم إننا أهل أنا الحاج متولى شيخ البلد فى «الحميدية»، وهذه زوجى، أما العفريتة هذه فهى ابنتى ملكة.. خطيبة الدكتور..».

فتحت الدكتورة رحاب عبد الباقى فمها فى دهشة، وأخذت تردد النظر بين عبد المغيث وملكة، وقالت:

- «أىّ دكتور؟».

ربت الحاج على كتف عبد المغيث قائلاً:

- «ابننا عبد المغيث.. لن يجد أفضل منها، ولن تجد أفضل منه..».

قالت رحاب وقد احتقن وجهها متوجهة إلى عبد المغيث:

- «مبروك يا دكتور، أما كان من الأليق أن تدعونا لنشاركك أفراحك».

خفض عبد المغيث رأسه، وهو يكاد يسقط إعياء فوق المقعد لولا تماسكه، بينما قال الحاج متولى:

- «هذا ما سيحدث قريبًا إن شاء الله، وسأدعو زملاءه جميعًا حتى تعم الفرحة . . ».

انتزعت رحاب قدميها فى عصبية، واستدارت خارجة . .

مشت فى الممر الكالح والدموع على خديها، كل شىء حولها بدا قاتمًا حزينًا يشاركها أساها، والروائح الكريهة تنبعث من حولها، حلمها الجميل يتبدد وينهار، توشك أن تسقط على الأرض الباردة المقيتة، لم يعد فى هذه الدنيا وفاء ولا صدق ولا حب، عالم خال من السعادة والجمال، وحينما بلغت غرفتها، ألقت بنفسها على السرير وأجهشت باكية، تجمع زميلاتها حولها حائرات متسائلات، وهى لا تجيب، فقد دفنت رأسها فى الوسادة، وأخيرًا رفعت إليه عينين محتقنتين، ثم أخذت تمسح دموعها من عينيها ومن وجهها.

وهى تقول:

- «لقد انتهى كل شىء . . لقد فسد الزمان والمكان . . ».

ولم تزد على ذلك، قامت وغسلت وجهها، ثم توضأت وصلت، وارتدت ملابس الخروج مستأذنة، وعند خروجها من

باب المستشفى، وجدت «راضى الجناينى» يعبر الطريق العام فى اتجاهها، ألقى عليها السلام، ولم يغب عنه ما تحمله قسماتها ونظراتها من وجوم وهموم، وقف أمامها جامدًا، قالت له:

- «لقد فعلها من وراء ظهرى».

أدرك على الفور ما ترمى إليه، فبادرها قائلاً:

- «لا تصدقى الإشاعات، الناس يبالغون، إننى أثق به، وإنه لم يخف عنى شيئًا..».

ابتسمت فى حسرة، وشردت بنظراتها قائلة:

- «اذهب إليه، وستراه جالسًا معها ومع أمها وأبيها، كانت قصة خداع طويلة امتدت ثلاثة أعوام أو أقل قليلاً..».

- «أيمكن أن يحدث ذلك؟».

- «كل شىء ممكن فى هذه الأيام».

تمتم راضى الجناينى:

- «حينما يجد الإنسان نفسه مثقلاً بالديون التى لا يستطيع سدادها يصبح عبدًا. عندئذ يستسلم.. ويبيع نفسه».

- «لكنه لم يكن مدينًا لأحد، كان فقيرًا ولم يمد يده».

- «نصبوا له الشباك، وأغرقوه بالمنح.. أنت لا تعرفين الحاج متولى.. إنه ديكتاتور صغير».

قالت عاتبة :

- «ولماذا لم تفلت نظرى منذ البداية» .

- «تداخلت البداية فى النهاية ، وأفهمنى أنه ثاب إلى رشدة» .

قالت فى غيظ :

- «ليس هذا بغريب عليه ، إنها محاولة أخرى للانتحار . . » .

أطرق راضى قائلاً :

- «هداه الله» .

ردت بعنف :

- ﴿ مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ [الإسراء : ١٥] .

قال وهو يدارى أساه :

- «هونى عليك يا أختنا الفاضلة ، فليس هذا نهاية العالم ، ولعل الله أراد لك الخير . . » .

قالت بغضب :

- «بالتأكيد ، أنا واثقة من ذلك كل الثقة» .

حينما قالت ذلك ، كان قلبها ينزف حزنًا ولوعة ، وكان خيالها

يصور لها أنها ممسكة بخصلات شعره تضربه وتنهشه بأظافرها وأسنانها، وقالت وهى تضغط على أسنانها :

ـ «حسبته مجاهداً مسلماً، ولم أكن أعلم أنه فى حاجة إلى المزيد من التربية الحسنة، كان يجب أن أعيد النظر فى أمره بعد أن حاول الانتحار، لكنى آثرت أن أقف إلى جواره حتى تمر الأزمة . . » .

- «من يدرى؟ قد تتغير الأحوال . . » .

قالت : «يصعب علىّ أن أنسى . . » .

●●●

[٨]

ساد الناس جو بشع من الرعب، وتبخر الشعور بالأمان، ولم يعد هناك برىء ومتهم، كل فرد يشعر أنه أجرم بأسلوب أو بآخر، على الرغم من أنه لا يعرف بالضبط ماذا ارتكب من جرائم لكنه شعور سائد تغلغل فى الأعماق، ولم يعد محل شك اللهم إلا فئة قليلة تعتمد عليها السلطة فى الحملة القومية والوطنية للتأديب العام، حتى الذين يصفقون ويهتفون بالشعارات المقررة يبالغون فى ذلك، وهم ليسوا على ثقة تامة بأنهم ناجون من الغدر، وليس أدل على ذلك من أن أجهزة الأمن قد ساقت عدداً من العاملين فى التنظيم السياسى لحزب الحكونة إلى المعتقل، منهم شاعر بارز، وناقد حصيف، وباحث متعمق، وممثل محترف، وكلهم من ذوى الاتجاهات الحكومية واليسارية، لكن الغضب الأكبر انصب على أصحاب الاتجاهات الإسلامية التى تمثلها جماعة الإخوان المسلمين التى أوقف نشاطها منذ أكثر من عشر سنوات، وأسف أغلب الناس على اختلاف مشاربهم أشد الأسف لما يتردد من قصص التعذيب

وإزهاق الأنفس، والتشنيع الإعلامى البشع الداعر كما يقال، فكل ما يسمعونه عما سمى بالمؤامرة يأتى من طرف واحد لديه القوة الباطشة، والإمكانيات الدعائية، ولا يستطيع أحد أن يسمع شيئًا من الطرف الآخر المتهم.. اللهم إلا ما تسمح به الحكومة لينشر فى الصحف والمجلات، وما يذاع فى الراديو، أو يعرض فى التليفزيون، ويدوى سؤال مكتوم فى الصدور، لماذا لا يحاكم المتهمون محاكمة علنية طبقًا للدستور العادى مثلما يحاكم تجار المخدرات والقتلة واللصوص والمدنيون والمزورون، وعلى الرغم من كتم الأنفاس، وتراكم الظلمات، فإن أفرادًا استطاعوا أن يلبوا نداء الواجب، ويعلنوا سخطهم ورفضهم لما يجرى على الساحة، فيسمع الناس عن خطيب فى مسجد جهر برأيه الحر فجروه إلى المعتقل، أو مدرس أفصح عما فى قلبه أمام زملائه وتلامذته، فوضعوا الأغلال فى يديه فألقوا به فى زنزانة حقيرة، أو كاتب قصة تسلل عبر الرموز والشخصيات وألمح إلى ما يجرى من ظلم وإهدار لكرامة الوطن والمواطن، فصادروا ما يكتب، وقدموه إلى المحاكمة، أو شاعر غنى بالآم المعذبين والمحرومين أو ناجى الله بأن ينزل غيث الرحمة على عبادة المساكين، فأقعدوه فوق منبر من أشواك وجمر حتى يكفر بما كتب، ويتبرأ مما نظم، ويلعن اليوم الذى أغراه شيطانه بأن يلهمه ذلك الهراء..

وقف الدكتور راضى عبد الباقى أمام زملائه من الأطباء والطلبة فى أحد المدرجات المكتظة، وقال فيما قال:

- «نحن لا نعادى أحدًا، ولا نطمع فى سلطة، ولا ندبر مؤامرات، ولا نبارك العنف والإرهاب، ولكننا نطلب العدل للجميع، والحرية للجميع والأمن للجميع فى إطار شرع الله..».

وضج الجميع بالتصفيق مؤيدين، وكانت الدهشة كبيرة، حينما اقتربت «رحاب الجناينى» من المنصة، ووقفت أمام الميكرفون فى ثبات وشجاعة، وقالت فيما قالت:

- «إننا نعيش فى عصر الغاية، برغم القرارات الاشتراكية ومشاريع التصنيع، وامتيازات الطبقة العاملة، وكسر شوكة الإقطاع والرأسمالية والرجعية، إن جميع المودعين فى السجون والمعتقلات اليوم من أبناء الطبقة العادلة، ومن صغار الموظفين والملاك وكيف نتباهى بالتحرر من قبضة الأمريكان ونتصدى لإسرائيل، ثم نركع تحت أقدام الاتحاد السوفيتى، وننسى أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين..».

وبلغ الأمر مسامع رجال الأمن فداهموا الكلية، وأخذ الطلبة يفرون من كل جانب، وكان قد تتابع عدد من الخطباء المعارضين طوال ساعة كاملة من الزمن، ولم يتقدم أحد من حزب الحكومة «الاتحاد الاشتراكى» ليدافع عن سياسة الحكومة أو نهج الحزب،

واستطاع راضى الهرب، لكن رحاب وقعت فى قبضتهم، لكن عبد المغيث كان له شأن آخر، فما أن أرى رحاب تقدم نحو المنصة وتبدأ فى حديثها، حتى تسلل خارجًا، ولم يعد إلى مسكنه مع راضى، فقد اتجه مباشرة إلى قرية «الحميدية» كى يبعد نفسه عن هموم السياسة ومشاكلها، فقد أصبح هذه الأيام أشد تعلقًا بالحياة من ذى قبل، يتمنى فى قرارة نفسه أن يتزوج ويسعد بدنياه الجديدة فى ظل الرغد الذى يحيط به من كل جانب، وبذلك يكون قد حقق كل ما يريد من أحلام، وعند موقف السيارات التقى بأحد زملائه الذى أبلغه أن رجال الأمن قد داهموا مسكنه، وأمسكوا بالدكتور راضى، وسألوا عنه هو الآخر.

كاد يجن، وانتابه الفزع، وقال:

- «أنا لم أشترك فى المؤتمر».

- «لعلهم أرادوا الإمساك بكل من فى الشقة بعد أن فتشوها بدقة، ووجد فيها بعض الكتب الخطرة مثل «كتاب معالم فى الطريق»، و«كتاب جاهلية القرن العشرين».

رد عبد المغيث:

- «كانت تخص راضى».

- «ألم تقرأها؟».

- «وماذا فى ذلك . . » .

- «إنها جريمة . . » .

قال وهو يتلفت يمنة ويسرة :

- «أنا لم أقرأها . . » .

وشاهد سيارة الأجرة التى ستذهب إلى القرية ، وعرف سائقها ، فهتف به أن ينتظر ، وانطلق إلى حيث وقفت السيارة ، واندس بين المسافرين ، كان يدعو الله من كل قلبه أن يحفظه من بطش الشرطة ، ويخفض رأسه أكثر وأكثر ، ويتداخل فى نفسه حتى بدا كرة مدفونة بين الرجال ، وأخذ يتذكر الأيام الخوالى وشجاعته الخارقة فى الانتخابات الطلابية ، وفى إلقاء الخطب الرنانة ، والقصائد العصماء ، واستعداده المطلق للتضحية بحياته فى سبيل المبادئ التى آمن بها ، ثم يتذكر فى خزى محاولة الانتحار المشومة التى أصبحت بمثابة نقطة سوداء فى تاريخه ، لم يكن يخاف الموت فى هذه وتلك ، أما اليوم فإن الفزع يكاد يقتله لمجرد التفكير فى أهم قد يعتقلونه كما فعلوا بزميله راضى وزميلته رحاب «يا إلهى هل استباحوا لأنفسهم اعتقال النساء؟ إن هذا لم يحدث من قبل . . لقد كان زملائى يفاخرون باعتقالهم قبل ، لكننى أعتقد أن الاعتقال هذه الأيام كارثة . . إنه بالموت أشبه وليس هناك من يضمن الحياة لمعتقل . . لقد اختلفت الأمور عن الأمس اختلافًا كبيرًا . . ولن أستطيع أن

أضحي بنفسى لأى سبب من الأسباب مهما عظم، التضحية فى هذا الأيام حماقة؛ ذلك لأنه محكوم عليها بالفشل، ولن يبكى أحد على ضجة أو يكترث لها . . ومن حقى أن أعيش، ولست بقادر على أن أزحزح الجبل، أو أصد العواصف، لقد تمكن السلطان فوق كرسيه، وأصبح يمتلك كل القوة، ومن البلاهة أن يتصدى لجبروته أحد. . وإزاحة المنكر هذه الأيام ليست باليد ولا باللسان ولكن بالقلب، وهذا أضعف الإيمان».

بدت قرية «الحميدية» الخضراء القابعة وسط الحقول، تحرسها النخيل والأشجار الضخمة، طرب عبد المغيث لرؤيتها، خيل إليه أن هذه القرية هى حصنه الحصين، ولن يجد مكانًا أمينًا فى الدنيا يختبئ فيه مثل هذه القرية، ومال على أذن السائق قائلاً:

- «أنزلنى عند بيت الحاج متولى».

ضحك السائق، وقال:

- «لن يستطيع أبوه الفرارجى الضعيف أن يحميه من غدر الأيام والليالى، وستؤانسه «ملكة» عصفورة الجنة الحلوة. . الدافئة. . والتى لا تشغل بالها بأى أمر من أمور السياسة والثقافة والعلم، إنها امرأة جميلة تريد أن تسعد هى وتسعد رجلها، حياته فطرية بسيطة، إنها دنياه الجديدة. . ».

هبّ الحاج متولى لرؤياه، بادره عبد المغيث بقوله:

- «لا أريد أن يعرف أحد أنى هنا».

- «كيف؟».

- «ولا حتى أبى».

- «لكنى بعض الناس رأوك..».

- «تستطيع أن تسكت ألسنتهم، أو تعلن أننى أتيت ثم سافرت على الفور لأمر عاجل..».

قال الحاج فى دهشة:

- «لم كل هذا؟».

- «سوف أشرح لك الأمر».

- «أقلقتنى، ورفعت ضغطى».

صافحه واحتضنه، ثم أغلق الباب بعد أن ألقى بالتعلمات للخفير الحارس، وقدمت «ملكة» ووجهها يتطلق فرحًا، بدت أروع جمالاً ودفئًا، تمنى أن يحتويها بين ذراعيه، ويظل متشبثًا بها حتى الموت، إنه يشعر أن وقت السعادة قصير، ويخاف أن يختطفوه قبل أن يذوق طعم المتعة التى حلم بها طويلاً، لكأنه يريد أن يهتبل الفرصة قبل أن تضيع، وأصر عبد المغيث على تحرير عقد الزواج على الفور، وتأجيل الزفاف إلى وقت يحدد فيما بعد، ولبى الحاج متولى طلبه وهو سعيد، وتم العقد فى مدينة طنطا بعد

إن سافروا إليها بليل تجنبًا لما قد يطرأ من المقربين، لكن الأمر لم يعد سرًا، فقد تسرب الخبر إلى العمدة وابنه رمضان، فاشتعلت النفوس غضبًا وحقدًا، وأعلنت حالة الطوارئ على مستوى الدولة، وتوقع الناس الشر، فقد حدث الصدام بين الكبيرين فى القرية: العمدة وشيخ البلد، أخذ الفرارجى يضرع إلى الله لعله ينجده فى محنته. فهو يشعر أن أمثاله الضعفاء هم وقود المعركة، وهم الضحايا الذين تلتهم نيران العداء الذى فرض فرضًا، ومع ذلك فقد نادى فى الظلمات **«أن لا إله إلا أنت سبحانك، إنى كنت من الظالمين»** وداهمت القرية فرقة من الأمن بحثًا عن عبد المغيث الذى قيل إنه ينتمى إلى جماعة الإخوان، وشاع فى الناس أن هناك اعترافات تلمح إلى تورطه لكنه كان قد هرب، فاتهم العمدة قريبه شيخ البلد الحاج متولى بأنه يتستر عليه لأنه زوج ابنته، ولكن الحاج متولى استطاع أن يبرئ نفسه من التهمة قائلاً:

- «أنا رجل الحكومة - والحزب - الأول هنا، وإخلاصى للثورة ليس محل شك، ولو عرفت مكان عبد المغيث لسلمته بنفسى، ذلك لأنى أعرف واجبى جيدًا، على الرغم من أنى واثق من براءته وسأبحث عنه فى كل مكان أتوقعه فيه حتى أجده»، وأفاق الناس فى القرية ذات صباح ففوجئوا بتفاحة زوج الفرارجى تصيح بأعلى صوتها قائلة:

- «أتلفوا زرعنا، وسرقوا بهائمنا . . ».

وجاءت شرطة المركز لتبحث عن الفاعل، فلم يتقدم أحد من الفلاحين بالشهادة أو مجرد إبداء الرأى، فالخوف يشل الألسنة، وتعود الناس على ذلك، وأصبح الصمت هو درع السلامة، والمداراة هى صمام الأمان، واختفى الحاج متولى هو الآخر، ولم يدر بخلد أحد أنه ذهب إلى «درويش بك» فى الداخلية:

- «أنجدنى يا بك، العمدة يتربص بى الدوائر، وابنه رمضان يريد قتلى، لقد اعتدوا على والد زوج ابنتى الهارب، وقدموا الشكاوى الكيدية . . رمضان يريد قتلى هذا ظلم وإرهاب . . اعملوا تحرياتكم وستجدون أنى برىء، وأن ما أقوله صحيح . . لا تتركنى يا درويش بك للذئاب الجائعة . . أنت الحامى لى، فلا تتخل عنى، وليس لى من ألجأ إليه سواك . . ».

ابتسم درويش بك، وقال فى ابتسامة خبيثة:

- «فلتجأ إلى الله . . ».

- «ونعم بالله، لكنكم جنوده فى الأرض لتحقيق عدله . . ».

- «يزعم الرجعيون والخونة أننا أتباع الشيطان . . ».

- «لم أسمع أحدًا يقول ذلك».

- «الأفواه صامتة مغلقة، لكن القلوب تمور بالحقد . . ».

- «عشت طول عمري وفيًا لكم. . ».

قدم له درويش بك سيجارة، وقال:

- «إذا أردت أن تثبت حسن نيتك فلتسلم زوج ابنتك لنا، وأعدك ألا يمس بأذى، عندئذ أستطيع أن أخدمك وأنقذه. . وستعرف ما سأعمل بالعمدة وولده رمضان. . ».

دارت الأرض بالحاج متولى، لم يكن يتوقع ذلك، لقد جاء لإنقاذ عبد المغيث، وها هم يطلبون منه تسليمه، ماذا يقول لابنته ملكة إذا فعل ذلك الفعل القبيح.

قطع درويش بك عليه أفكاره قائلاً:

- «لن يستطيع أن يفلت منا أحد، ونستطيع الإمساك به فى أقصر وقت، وأنت تعلم أن عين الحكومة لا تنام، هل سمعت أن أحدًا استطاع أن يهرب منا؟».

- «لكنى لا أعلم أين هو، لقد تركنا ومضى».

- «الهرب إدانة له، ولو أتى بنفسه، لأجريت له تحقيقًا صوريًا فى مكتبى هنا ثم أطلقت سراحه. . ».

هب الحاج متولى واقفًا وهو يقول:

- «سأحاول. . ».

- «تأكد كأنه لن يمس بأذى . . » .

عندما بلغ الحاج متولى باب المكتب، سمع درويش بك يقول :

- «على فكره» .

- «عندما تصل إلى البلد، فستجد ما لا يسرك . . » .

حينما عاد الحاج متولى إلى «الحميدية»، وجدها على فوهة بركان، وعلم أن مأمور المركز مجتمع مع العمدة فى «الدوار»، وأن المخبرين السريين منتشرون فى أماكن التجمعات، وأنهم يجمعون التحريات وقصد الحاج متولى بيته أولاً، كان يبدو حزينًا مكفهر الوجه، تتجلى الحيرة على وجهه، استقبلته ملكة فى لهفة :

- «خير يا أبتى» .

شرد ببصره بعد أن ألقى جسده المجهد فوق الكنبة ثم قال :

- «إننا مقبلون على أيام صعبة» .

- «هل هناك أصعب مما نحن فيه؟» .

تبللت عيناه بالدموع، وقال :

-«عبد المغيث لا بد وأن يسلم نفسه» .

صاحت فى رعب :

- «أيلقى بنفسه فى النار؟ وأنا، ماذا أفعل؟» .

- «لن يصيبه مكروه . . وأنت فلتصبرى . . » .

- «فليأخذونى مكانه» .

- «بل ستبقين هنا معززة مكرمة» .

- «كيف يقر لى بال؟» .

- «سيأتى إليك ، ولن يطول غيابه ، لقد أخذت عليهم عهداً» .

- «ليس لهم عهد ولا ذمة يا أبى» .

- «لكنى رجلهم المخلص» .

- «وإذا لم يأت . . » .

هتف فى غضب :

- «سيكون بطن الأرض خير من ظهرها» .

- «لا يوجد فى البلد كلها من يعاديهم . . » .

دق الباب ، هب واقفًا ، وجد أمامه شيخ الخفراء .

- «البك المأمور فى انتظارك يا عم الحاج» .

- «خير» .

- «كل خير . . » .

مشى الحاج وإلى جواره شيخ الخفراء .

- «هل جد جديد؟».

- «قبضوا على رمضان ابن العمدة».

- «غير معقول..».

- «وأخذوه مخفوراً إلى المركز، هناك شائعات تقول إنه أتلف الزرع ودبر سرقة المواشى..».

- «هل شهد ضده أحد؟».

- «لا، التحريات وحدها..».

كان العمدة يجلس شاحب الوجه، وأمامه فنجان من القهوة ممتلئ لم يمس.. ويكاد يبكى، وفى الصدارة جلس المأمور منتفخ الأوداج وإلى جواره ضابط شاب، وبعض العسكر.

قال المأمور:

- «لدينا أوامر يا حاج متولى بوقف حضرة العمدة عن عمله، وتحديد إقامته فى بيته..».

قال الحاج متولى بصدق:

- «العمدة لم يقصر فى عمله، ولم يأت مخالفة متعمدة».

- «لا دخل لك فيما نتخذ من قرارات، أعرف أنكم أقارب، ونحن نعرف ما يجب أن نفعله..».

وسادت فترة صمت قال المأمور بعدها :

- «ولقد تم تكليفك يا حاج متولى بالقيام بأعمال العمدة . . يجب أن تكون يقظًا . . البلد كلها فى حالة غليان ، والثورة لن ترحم أى مقصر . . » .

لم تنم «الحميدية» هذه الليلة ، فقد انتشرت الأخبار ، وخلفت وراءها العديد من المناقشات والتكهنات ، واتفق الجميع على أن الثورة قادرة على أن تضرب بيد من حديد ، وأنها قادرة على تأديب كل من تسول له نفسه الخروج عن إرادتها وأوامرها ، وانزوى الفرارجى فى بيته دون أن يداعب النوم جفنيه ، والليل ساج ، والهموم تجثم على الصدور ، وكيف ينام الفرارجى وهو يعرف أن ابنه مطلوب ، كما لا يعرف مكان اختفائه ، وهل أمسكوا به أم لا ، بل يشتط به الخوف ولا يستطيع أن يستيقن هل هو حى أم ميت ، وتذكر مقالة زوجة تفاحة حينما ولولت «يا فرحة ما تمت» ، فلم يكد ابنه يتخرج ويصبح طبيبًا ، ويتحقق الأمل ، حتى جاءت الشرطة بعد أيام تطلب اعتقاله ، إن الفرارجى حزين ، لقد عاش طول عمره مطيعًا لأوامر الناس والحكومة والعمدة والشيخ ، حتى تفاحة لا يستطيع أن يعارضها ، وكان أيضًا يستجيب لطلبات ولده عبد المغيث وآرائه ، وهو سعيد كل السعادة بذلك ، حتى زواج ابنه لم يكن له رأى حقيقى فيه ، لقد أراد الحاج متولى ، ولم يقف

الفـرارجي فى طريق إرادته، ووافق ابنه ولم يفكر فى أن يثنيـه بقـوة عن موافقته، ما ذنب الفرارجى؟ إن أعظم درس تعلمه فى حياته هو درس الصبـر، وليس أمـامه خيـار آخـر، ولا ملجأ من الله إلا إليه، قالت تفاحة:

- «إذا لم ينجد الحاج متولى ابنى فسيطلق ابنته طلقة بائنة».

قال الفرارجى:

- «اغلقى فمك وانكتمى..».

- «دعنى أنفث عن همى يا فرارجى».

- «إذا لم تكفى فسأقطع لسانك..».

ردت فى دهشة:

- «أنت يا فرارجى؟ ومنذ متى؟».

- «من الآن».

هتف ساخرة:

- «هل تظن نفسك جمال عبد الناصر؟».

اصطنع ضحكة متشنجة، وقال:

- «أنا عبد ضعيف حقير، نذرت نفسى لابتلاء الله..».

لم تسترح لنبرته الحزينة، وهوانه المؤسف.

- «قم يا رجل لتنام. . ».

- «أنام جالسًا. . ربما أكون نائمًا الآن، اختلطت الكوابيس بما يجرى فى اليقظة هل هذا هو الجنون، يا رب رحمتك، ولماذا أنام؟ لقد دمروا الزرع، وسرقوا البهائم، وغداً يسجنون ابنى، ماذا بقى لنا فى الدنيا؟».

لأول مرة تشرق روحها بالأمل، وتقول:

- «رحمة الله. . ».

نظر إليها طويلاً:

- «هذا حق يا امرأة. . رحمة الله. . رحمة الله «الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله وبحمده بكرة وأصيلاً. . ». . ».

كان يطوح رأسه يمنة ويسرة وهو يتكلم:

- «هل أصبحت مجذوبًا يا فرارجى؟».

- «إنى أصعد إليه».

- «إلى مَنْ؟».

- «الله. . إن لذكره لحلاوة. . إنه معنا، ولن يتخلى عنا. . ».

سأل الناس فى اليوم التالى عن الحاج متولى، فلم يجدوه فى

منزله، وأفادت زوجه وابنته أنه خرج قبيل الفجر، فظنوا أنه ذاهب للصلاة، ولكنه لم يعد، بحثوا عنه في كل مكان فى القرية فلم يعثروا له على أثر.

جلست ملكة باكية، وأمها إلى جوارها، لم تمتد أيديهما إلى زاد أو ماء، لماذا انقلبت الأفراح إلى وجوم وأحزان؟ إن ملكة تتساءل ولا تجد جوابًا، حسبت ذات يوم أن الدنيا ملك يمينها، وأنها تأمر فتطاع وتطلب فتجاب، واكتملت سعادتها باستحواذها على عبد المغيث بعد أن عقد العقد، وجلس معها وحيدين فى الغرفة قالت:

- «ماذا تنتظر؟».

ابتسم وقال:

- «أنتظر السماح يا أهل السماح..».

«ألم أصبح زوجك..».

- «شرعًا وقانونًا..».

- «تحرك وابدأ فى تطبيق الشرع».

فتحت ذراعيها وفتح ذراعيه..

وأفاق على نقرات بالباب، كانا يسبحان فى حلم وردى نسيا فيه كل ما حولهما، إنها تتذكر ذلك الآن، حسبت أن الدنيا ستبقى

هكذا دائمًا حلمًا رقراقًا نديًا، لقد قرأت الكثير فى قصص الحب وملاحم العشاق، وتتمثل فى خيالها ما تقرأه على الورق، ولم تكن تتوقع أن الحقيقة تفوق الخيال، عندما يتم الزفاف فستأخذ عبد المغيث وتطير على جناح سحابة بيضاء إلى مكان بعيد تكثر فيه الطيور والعصافير والزهور والزروع الخضراء، وتسابق الغزلان، وتناجى الحمام واليمام، وتسبح فى نهر كالكوثر، وتغنى وتضحك وتهتف بأعلى صوتها. . الحلم لم يدم طويلاً، لحظات ثم وجدت نفسها مرة أخرى تزحف على رمال الصحراء القاحلة، يكاد يقتلها الخوف والظمأ، لقد عوّدها أبوها أن يحقق لها رغباتها، فهل يستطيع هذه المرة؟



[٩]

كان عبد المغيث مختبئًا عند تاجر مواشى مرموق فى «كفر عنان» بالقرب من مدينة زفتى، وهو صديق حميم للحاج متولى، ولم يكن أمر تسليمه للسطلة بالشىء الهين، فهو اليوم فى مقام ابنه، ولو علمت ملكة بتسليمه على يد أبيها لكانت الطامة الكبرى، لكن درويش بك قد وفى بوعده، وأوقف العمدة عن العمل، ومن المحتمل ألا يعود إلى منصب العمدية مرة أخرى، ما دام الأمر يتعلق بقرار من الأمن، وأصبح الحاج متولى هو العمدة بالنيابة، كما أخذ رمضان إلى التحقيق، بناء على التحريات التى اتهمته بارتكاب الجرائم، وزعزعة الاستقرار فى القرية، ولهذا فإن الحاج متولى يثق فى وعود درويش بك ولا يتصور أنه سيخدعه أو يفجعه فى عزيز لديه ولدى ابنته الوحيدة، وعزم الحاج متولى على أن يقدم على تلك الخطوة الخطيرة، فذهب إلى تاجر المواشى الصديق، وأخذ الدكتور عبد المغيث وانطلق به إلى القاهرة، كاد الرعب يقتل عبد المغيث عندما صارحه الحاج متولى بالحقيقة، فكر فى أن يفر

ويجرى فى قلب المزارع، ويختفى عن الأنظار، وفكر فى أن يركب قطار الصعيد، ويصعد إلى الجبل الذى يأوى العصابات والهاربين من وجه العدالة، لكن ماذا بعد ذلك؟ هل يظل هاربًا طول حياته؟ وكيف يضحى بمستقبله كطبيب؟ إنهم لو اعتقلوه فسوف يقضى شهورًا أو عامًا أو أكثر ثم يعود إلى عمله، قال له الحاج متولى:

- «فيم تفكر يا عبد المغيث؟».

- «أفكر فيما كان يفكر فيه سيدنا إسماعيل وهو يتبع أباه إلى حيث يذبحه حسبما رأى فى منامه».

- «لكنه لم يذبحه يا ولدى».

- «ذلك لأن الفداء جاءه من السماء».

- «ليس ببعيد على الله أن ينجيك..».

- «أوزار العصر جعلت السماء تخاصم الأرض ومن فيها..».

- «باب الرحمة لم يوصد فى أى عصر من العصور يا عبد المغيث..».

- «الطغاة أغلقوه.. ألا تسمع وترى؟».

- «لا يستطيعون أن يفعلوا؛ لأن ذلك خارج نطاق سلطانهم، ومن يقول غير ذلك فقد أشرك..».

قال عبد المغيث:

- «أستغفر الله..».

ثم أجهش باكيًا، وتشبث بكفى الحاج متولى، وهتف:

- «أخاف أن يقتلونى، إنهم يفعلون ذلك عشوائيًا..».

- «أوه يا عبد المغيث.. لن يقع شىء إلا بأمر الله، أين ذهب إيمانك القديم؟».

قال وهو يجفف دموعه:

- «تخلت عنى ثقتى عندما لم أتمسك بها، تلقيت الضربات تلو الضربات فزاغ بصرى، واختل تفكيرى، وضلت بصيرتى.. وأردت أنت أعود إلى أيامى الجميلة، وشعرت أننى أوشك على ذلك... لكن الأيدى الملوثة جاءت تدق بابى.. جن جنونى.. أنا من لحم ودم..».

أخذ الحاج متولى يهدئه ويطمئنه، ويروى له مراحل حياته، وكيف قسا على الخلق واستغلهم، لم يكن يعرف الرحمة أو التسامح ظنًا منه أن ذلك ضعف لا يليق برجل فى السلطة مثله، والسلطة لا تعرف الرحمة؛ ذلك لأن الناس يسيئون فهم الأمور، ثم يندفعون فى المروق، ويخرجون عن الطاعة، لحماقة فيهم، أو جهل يغشاهم، والعامة كالأطفال لا يستكينون ولا يرضخون إلا

بالعصا . . وفى ليلة مشهودة أفاق الحاج متولى، وأخذ يقلب صفحات ماضيه، وواجه نفسه بشجاعة، إنه مريض بالسكر وارتفاع الضغط، قال له الطبيب ذات يوم أن الضغط هو القاتل الصامت، قد يأتى على هيئة جلطة فى المخ أو القلب أو نزيف فى الرأس، والسكر أيضًا قد يسبب الغيبوبة التى تقضى على الإنسان، وحذره من الانفعالات الشديدة وأسبابها، ونظر الحاج متولى حوله فوجد أنه يمتلك المال والأرض، وليس فى حاجة إلى المزيد، وتملى قسمات ابنته الجميلة الوحيدة، وابتساماتها العذرية الطاهرة، وتساءل بينه وبين نفسه : ماذا يريد أكثر من ذلك؟ ولماذا لا يندم ويتوب، ويحاول أن يرد للناس حقوقهم المسلوبة، ثم يذهب ليحج ويكفر ما قبله من ذنوب، ويعود إلى بيته ليتنعم بحياته الجديدة، ويتخلص من كل ما يسبب له التوترات والصراعات.

- «وجئت أنت يا عبد المغيث، فكنت أمنيتى الأخيرة؛ لأن زواجك من ملكة كان أملاً غاليًا . . وابنتى أصبحت أهم ما فى دنياى . . ».

- «وهأنذا أساق إلى الجحيم . . ».

- «لن يخيب الله رجائى».

استبقلهما درويش بك بحفاوة، شعر الحاج بقدر كبير من الارتياح، لكن القلق ظل منشبًا مخالبه فى قلب عبد المغيث، هتف

عبد المغيث من أعماقه بإخلاص وصدق لم يعهدهما فى نفسه من قبل «يارب» جاء صوت درويش بك حاسمًا :

- «تستطيع أن تنصرف أنت يا حاج» .

-«بدون عبد المغيث؟؟» .

-« سيبقى معنا يومين أو ثلاثة» .

- «ولماذا لا تتركه الآن؟ لقد وعدتنى» .

- «وأنا عند وعدى . . » .

شعر بالحيرة ، لكنه لا يستطيع أن يفعل أى شىء ، قال :

- «احسبونى معه» .

- «لست مطلوبًا ، وهذه الأمور ليس فيها تطوع . . » .

- «إنها كارثة يا درويش بك ، لقد سلمته لكم بيدى ، وهو زوج ابنتى على سنة الله ورسوله . . » .

سدد درويش بك نظرات ثابتة ، وقال :

- «إن لنا نظامنا ، والإفراج لا يتم إلا بموافقة الرئيس» .

- «إنه ليس متهمًا يا بك ، وانشق عن الجماعة بالقوة والفعل» .

تنهد درويش بك ، وقال :

- «أنت لا تعرف يا حاج أننا تحرينا تحريًا كاملاً عن عبد المغيث، وفى التحقيقات التى أجريناها مع إخوانه وخاصة الدكتور «راضى الجناينى» و «رحاب عبد الباقى» وغيرهما أثبتت أنه- كما يقولون- غير ملتزم، وأنه حاول الانتحار، وأنه. . وأنه. . وهذه كلها أمور فى صالحه. . ».

شعر عبد المغيث بالخجل، هل هذا هو حكم إخوانه؟ كان الموت أهون عليه من سماع هذه الشهادة المخزية، منذ لحظات كان يتمنى أن ينجو بأى أسلوب، وليذهب كل شىء إلى الجحيم، أما الآن فيشعر أنه مسلوب الشرف والكرامة، هل هذا هو رأى إخوانه فيه، إنسان تافه ضائع غير ملتزم حاول الانتحار، ليس صاحب مبدأ؛ لقد انهدم تاريخه كله، ولم يبق له غير شهادة البكالوريوس، زوجه ملكة. . ليته مات حتى لا يرى تلك المأساة. . وقف وقال:

- «يا سعادة البك، أنا تحت أمرك، ولتفعلوا بى ما شئتم. . ».

دق درويش بك الجرس، وقدم اثنان من المخبرين، قال البك:

- «سلم عليه يا حاج وكن مطمئنًا».

عاد الحاج متولى إلى «الحميدية» والدنيا أضيق فى عينيه من الخاتم، صورة عبد المغيث المضطرب الشاحب المستسلم تتربع فى خياله، مذاق الحياة لدى الحاج أصبح كالعلقم، كانت السيارة

العائدة تنطلق به وهو لا يكاد يرى أو يسمع شيئًا، إنه يفكر فى ابنته المسكينة «ملكة»، ماذا سيقول لها؟ هل يعترف لها بعجزه، وهو الذى كان يظهر أمامها بمظهر القوة والتحمل والجرأة؟ هل يخبرها أنه أخذ بيديه هاتين زوجها من الدار للنار؟ وماذا يقول للفرارجى ولتفاحة زوجه؟ أيعترف بالحقيقة المرة؟ وماذا سيقول لأهل القرية، وهو الآن عمدتها؟ أيمكن أن يجهر بأن أهل القمة الذين سخروه طوال السنوات الماضية لتحقيق مآربهم قد غدروا به؟

عندما دلف إلى بيته الفخم ظهر فى عينيه كالقصر المهجور الذى يعشش فيه البوم والعنكبوت والغربان، ظهرت ملكة أمامه فجأة والخوف يبدو فى عينيها:

- «أين عبد المغيث؟».

- «هو فى أيد أمينة».

- «يبدو أنهم أمسكوا به».

- «وكيف عرفت؟ . .».

- «كل شىء يظهر على وجهك يا أبى».

قال وهو يخلع عمامته وعباءته:

- «مجرد استكمال تحقيقات لن تستغرق سوى يومين أو ثلاثة أيام على الأكثر . .».

انفجرت باكية، وألقت برأسها على كتفه، إنه يطيق عذاب الدنيا لكنه لا يتحمل هذا الموقف الرهيب:

- «إنهم يكذبون يا أبى .. دائمًا يكذبون».

بكى هو الآخر، وارتمى على الأريكة، وقال بنبرات حزينة:

- «قلت لهم خذونى معه .. الله وحده يعلم كم كنت صادقًا فيما قلت، وكم أحببت هذا الولد .. أحببته من أجلك أنت ..».

- «لو استطعت أن أقتلهم لفعلت، لأول مرة أشعر أننى مهانة مظلومة .. أبى ..».

- «ماذا يا حبيبتى؟».

شهقت مرة أخرى باكية، وقالت:

- «أريد أن أمـــوت .. أريد أن أمـــوت .. لا أطيق هذه الحياة ..».

قالت أمها من الداخل:

- «السجن للرجال ..».

شعر الحاج متولى بدوار، تفصد جبينه عرقًا، همس بصوت واه:

- «كوب ماء .. رأسى يكاد ينفجر .. إنى أختنق».

جرت ابنته وهى تجفف دموعها، وجرت زوجه فى اضطرابات، وأحضروا الدواء والماء.

- «ابعثوا بشيخ الخفراء ليحضر الطبيب..».

ثم استلقى على الأريكة، وسكت، لم يعد قادرًا على الكلام، وتجمهر أهل القرية فى الساحة الواسعة أمام بيته، تحت الأشجار الضخمة، أعداء الأمس يدعون له، ويعلنون عن مسامحتهم له بعد أن أصبح رجلاً آخر، أصدقاء اليوم يتمنون له الشفاء؛ لأنه أفضل من يتحمل مسئولية البلد الآن، بعد أن ضاقوا بحماقات رمضان ابن العمدة وإساءاته، قال الطبيب:

- «اطمئنوا إنها ذبحة صدرية خفيفة، وارتفاع فى ضغط الدم، وسوف يتحسن إن شاء الله، بشرط الراحة التامة والمواظبة على العلاج، والبعد عن الانفعالات».

فى اليوم التالى ابتسم الحاج متولى، وقال:

- «لن أشفى إلا إذا جاء عبد المغيث، وأنا واثق أنه سيأتى».

قالت ابنته:

- «يارب يا بابا».

- «وحينما يعود ستعم الأفراح.. وسأذبح ثورًا للمساكين..».

وقالت ملكة :

- «وسأتبرع لترميم المسجد بمائة جنيه» .

قالت أمها :

- «يكفى عشرة . . » .

- «بل مائة يا زوجتى . . إن رغبة ملكة أوامر . . » .

تنام تفاحة كل مساء ودمعتها على خدها ، ويتمدد الفرارجى فى الظلام مفتوح العينين ، يحملق فى سقف الغرفة وكأنه يتابع شريطًا من الصور والحركات الخفية .

- «هل نمت يا فرارجى؟» .

- «الليل طويل . . طويل يا تفاحة» .

جلست تفاحة وسط السواد الضافى وأخذت تندب ولدها كما تفعل الثكالى فى الجنازات .

أنا قلت له يا ولدى إياك ومشىْ الليلْ

الليل طويل يا ولدى وأبوك قليل الحيل

الليل طويل وقلبه أسود وزىّ الطين

والله ما يرحم يا ابنى ولا لك علىّ يمين

وقفزت تفاحة من فراشها، وجرت إلى الشارع كالمجنونة، وأخذت تصرخ وتصيح بصوت عال: «ولدى.. ولدى»، فتدفق الناس رجالاً ونساء يحملون الشعلات الغازية متجهين إلى بيت الفرارجى وهم يتوقعون أن مكروهًا قد أصاب ولده، فقد علم الناس أن بعض المعتقلين قد ماتوا بصورة غامضة وأخطر أهلوهم بذلك، ووجد القادمون الفرارجى يضع يده على فم تفاحة، ويلكزها حتى تكف عن العويل إلى أن هدأت، ثم اتجه إلى الناس يشكرهم على مشاعرهم الطيبة، ويؤكد لهم أن ابنه بخير، وأنه لم يرتكب جرمًا، وسوف يفرج عنه فى أقرب وقت ممكن...

●●●

[١٠]

قال عبد المغيث لنفسه وهو يدخل معتقل القلعة «إذن وقعت الواقعة ولا مفر» لم يعد هناك عمل يعمله، أو حالة يلجأ إليها، من أجل الخلاص من هذا المأزق، وكان لكل داخل إلى سجن القلعة استقبال خاص يتناسب ومكانته، وكان واضحًا أن عبد المغيث محظوظ إلى حد كبير، فهو لم يتلق إلا عددًا من الصفعات واللكمات والركلات بالإضافة إلى سوطين أو ثلاثة من سياط السجّان المناوب، لم يتكلم وإن تألم أشد الألم، كان الوقت وقت غداء، قذف العسكرى بطبق من الألومنيوم نحوه، ثم وضع له كمية من الفاصوليا البيضاء المطبوخة، وفوقها مغرفة من الأرز اللامع من أثر الدسم، ورغيفًا طازجًا، أخذ طعامه ودخل إلى الزنزانة، كان وحده، دار بنظراته فى أرجاء الغرفة المعتمة ذات النافذة الصغيرة العالية، وجد «برشًا» من سعف النخيل، جلس عليه، ووضع الطعام أمامه، لم يجد أدنى شهية، عبس متجهمًا وظل حزينًا، لا يعرف شيئًا عن مصيره المجهول، «أين وعودك يا

درويش بك؟» هذا عصر الافتراء والكذب، ها هو الحلم الذى حلم به قبل الثورة يذوب ويتلاشى أمام شمس الحقيقة المرة، طافت برأسه صورة ملكة والمشاعر الدافئة، ومائدة الطعام العامرة بأشهى وأطيب المأكولات، والخلوة الشرعية والذراعين المفتوحين. . وتذكر زملاءه الأطباء فى مسكن الامتياز، والممرضات يرحن ويجئن ويبتسمن فى شىء من الخلاعة، والمرضى المتعبين وهم يتوسلون ويستغيثون، آه. . تذكر آباه وأمه، ترى ماذا يفعلان الآن «يا دنيا الأحزان عليك اللعنة» الخوف يتضاءل رويدًا رويدًا، وعبد المغيث يستسلم لما تجىء به الأقدار، ليحدث ما يحدث، فليس بينه وبين الموت إلا خطوة، وقد يأتى أو لا يأتى، ألم يحاول التخلص من حياته فى الأمس القريب ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: ١-٢] ما أروع كلمات الله!! ليته يملك الآن مصحفًا ليقرأ فيه، لكنهم بالتأكيد لن يسمحوا بذلك، هذا مكان للتحقيق وانتزاع الاعترافات، حينما ينظر فى كتاب الله يجد السلوى والعزاء، وإنه ظامئ فى هذا الهجير إلى الكلمات القدسية، لقد تخلى عنه العالم، أخذ يفكر فى الاتهامات التى يمكن أن توجه إليه، تفحص تاريخه جيدًا، لم يجد فيه مخالفة سياسية يعاقب عليها القانون، لكن مَنْ من الناس فى هذه الأيام يستطيع أن

يجزم أنه بريء؟ لا أحـد، لكنهم يستطيعـون أن يبتكروا التـهم، ويلفـقـوا الاتهـامـات، والتـصـرف العـادى يمكن أن يكون جـريمة، الصـمت نفسـه سلوك سلبى، والسلبيـة جريمة، الذين لا يبلغـون السلطة عن أى نشاط مشبوه يعتبرون ضالعين فى الجريمة، والتهـمة جاهزة، إنها تهمة «علم ولم يُبَلِّغ»، سمع صوتًا اهتز له كيانه:

- «السـحن كله يسـمع . . من يسـمع اسـمـه يرد ويطرق باب الزنزانة من الداخل . . عبد المغيث الفرارجى . . ».

جرى صوب الباب، وأثناء جريه اصطدمت قدمه الحافية بطبق الفـاصوليا فـتناثر كل ما فـيه، لـم يعبأ بذلك، أخـذ يدق البـاب: «أفندم . . عبد المغيث الفـرارجى . . زنزانة رقم سبعة . . »، ووقف جامدًا خلف البـاب، وقلبه يدق بقوة، ها هو الرعـب يحتـاجه من جديد، سيخرج من الزنزانة إلى المجهول لا يعرف شيئًا عن الأسئلة التى سـتـوجـه إليـه، ولا مـقـدار الإهانة والتـعـذيب الذى سيـرزح تحتـه . . مـشى كـالتـائـه أمـام العـسكرى الذى يحـمل الكرباج فى يمناه . . هتف به العسكرى وهو يلفـعه بسوطه «سـريعًا مـارش يا ابن الكـلب» . . جـرى . . وأسـرع فى الجـرى، صـاح العـسكرى مـرة أخرى «معتادًا مارش يا ابن الجـاموسة . . » فعل . . ثم قال له «خطوة تنظيم يا حـمـار» إنه يطيع الأوامـر العـسكرية، علـى الرغم من قلة

خبرته فى مثل هذه الأمور. . دخل غرفة المحقق. . سألوه عن أشياء كثيرة تتعلق بإعادة نشكيل الجماعة المنحلة، وعن علاقاته ببعض الأشخاص، وعن رأيه فى الرئيس والثورة وسياسة الحكومة، سألوه عن تاريخ حياته، حتى محاولته الانتحار سألوه عنها، سألوه عن أسفاره، وعن الكتب التى يقرؤها. . كان يريد أن يخرج بأى ثمن، وعندما يخرج فسوف يطلق السياسة إلى الأبد «للبيت رب يحميه».

- «أنا يا سعادة البك، جندى من جنود الثورة المخلصين، وأبى رجل فلاح كانت الثورة خيراً وبركة عليه، لولا الثورة لما استطاع أبى أن يعلمنى فى كلية الطب».

- «التقارير التى كتبت عنك تؤكد كلماتك. .».

- «لكن العسكر ضربونى بالسياط وشتمونى».

- «هذه أشياء روتينية لا تغضب منها. . ثم إنها نوع من الاختبار، وقد نجحت يا عبد المغيث. .».

- «الحمد لله. .».

- «لكن بشروط. .».

- «تحت أمركم. .».

- «أن تكون عينًا لنا، وواحدًا منا، جنديًا من جنود عبد الناصر، إنك تخدم بذلك وطنك، بل والأمة العربية كلها، أتفهم؟».

- «بكل تأكيد..».

- «ويا ويلك إن غدرت يا عبد المغيث».

- «كيف أغدر؟».

- «نستطيع أن نعيدك إلى هنا فى ساعات..».

- «أعلم..».

- «ومن حسن حظك أن راضى الجناينى، وخطيبتك السابقة رحاب عبد الباقى قد أديا شهادة طيبة فى حقك.. أتريد أن تراهما؟».

هتف عبد المغيث دون ترو:

- «لا... لا...».

- «بل ستراهما حتى ترى..».

وأشار المحقق إلى العسكرى الواقف بالباب، وسرعان ما أتى براضى الذى دخل الغرفة يترنح، وكان رأسه حليقًا، عليه آثار السياط الدامية، وقميصه ممزق مصطبغ بالدماء والعلامات الزرقاء

على وجهه وذراعيه، ولم يصدق عبد المغيث ما تراه عيناه، شعر بأسى عميق، تمنى أن يحتضن راضى، ويضمه إلى صدره ويبكى، لكن منطق العقل كبح جماح العاطفة، فظل عبد المغيث جامداً فى مكانه لا يتكلم.

قال الضابط:

- «هذا جزاء من يجاهر بالعداء، نحن لا نظلم أحداً.. إن المؤامرات الداخلية تربك الحكومة، وتعطى فرصة لإسرائيل ولأمريكا.. ومن ثم فلا نرحم من يتمرد أو يخون..».

نظر راضى إلى المحقق وعلى فمه ابتسامه ساخرة، ولم يعلق بشيء، وأشار الضابط برأسه إشارة خفيفة، دفعوا راضى بعدها إلى الخارج فى قسوة وغلظة، وهو مستسلم تمامًا، وبعد لحظات دخلت رحاب، بدا فى عينيها أثر السهر والإرهاق، وعلى وجهها كدمات وسمجات، لكنها كانت متنمرة، قال الضابط:

- «انظر إلى هذه القردة..».

لم ينطق، واختطف نظرة عجلى، عادت إليه بالحسرة والهوان، وأحزان العجز الخالد الذى لازمه طويلاً فى حياته.

- «لقد أحسنت يا عبد المغيث إذ فسخت خطبت لها..».

رق قلب عبد المغيث، ولم يدر كيف قال:

- «إنها فى الحقيقة إنسانة طيبة القلب..».

استشاط الضابط غضبًا، وقال:

- «كيف تقول هذا الكلام، وأنت تعلم أنها جاهرت بعداء الثورة فى اجتماع عام بالكلية؟»،

- «لا علاقة لكلامى برأيها السياسى، ولكنى أتحدث عنها كزميلة..».

- «اسحب كلامك؛ لأنه ليس فى مصلحتك..».

طأطأ عبد المغيث رأسه، وقال:

- «كما تريد..».

- وقال الضابط ساخرًا:

- «لقد اكتشفنا أن لها علاقات شائنة مع بعض الزملاء..».

صاحت رحاب بقوة وتحدٍ:

- «خسئت.. أنا أشرف من الشرف نفسه، إنكم تروجون الأكاذيب السامة، وسوف يحاسبكم الله عليها فى يوم من الأيام..».

هتف الضابط قائلاً:

- «جروها إلى قسم النساء، وعلموها الأدب مرة أخرى . . ».

بعد أن خرجت أفلتت دمعة من عين عبد المغيث، سرعان ما غافل الضابط ومسحها بأصابعه، وجاءه صوت الضابط:

- «سيفرج عنك يا عبد المغيث بعد يومين . . ».

لم ينتش عبد المغيث لهذا الخبر المثير السار، خيّل إليه أن الدنيا قد خلت من الحب والجمال والأمل، ولا طعم لها ولا رائحة، حياة بالموت أشبه، لقد نجا، لكن ترسبت فى أعماقه أحزان يصعب أن تزول مع الزمن، حتى ولو زالت الثورة ومعها جمال عبد الناصر، لم يكن يتصور أن تتحول الأيام الجميلة التى عاشها مع إخوانه فى الماضى القريب، إلى مهانة وعناء واحتقار لإنسانية الإنسان الذى كرمه الله، وأسجد له الملائكة . . أشياء كثيرة تموت فى داخله . . تذبل الورود والأزهار، وينمو الشوك والعوسج، وتتوارى الأضواء الطاهرة، ويحط الظلام، وتصمت العصافير، وتنعق الغربان، وتعوى الذئاب.

- «وعندما تخرج من هنا يا عبد المغيث يجب ألا تحكى عن أى شىء رأيته، وأنت بالذات قد عوملت معاملة فى منتهى الرقة والعطف . . نحن لا نقسوا إلا على الخونة . . أتعرف يا عبد المغيث ما هى الخيانة؟».

- «أعرف يا بك».

- «ما هى..».

- «التعاون مع الأعداء والتجسس على حساب الوطن».

قال الضابط:

- «هذا مفهوم ضيق وقد تطور كثيراً مع الزمن».

- «كيف يا بك؟».

- «الخروج على إرادة الرئيس خيانة، التنكر لمبادئ الثورة خيانة، المعارضة والنقد للسياسة الداخلية أو الخارجية خيانة.. هل تعلمت الآن؟ أن الجامعة لا تعلمك شيئًا فى فقه الحكم وفقه السياسة».

قال عبد المغيث فى شرود:

- «صحيح..».

- «لماذا يا دكتور».

- «لأنه لا يصح الشك فى منهج القيادة».

- «صح.. والشك خيانة..».

- «والكذب خيانة..».

- «ليس دائمًا يا عبد المغيث . . » .

- «أعنى أن . . . » .

قاطعة قائلاً :

- «الكذب فى السياسة وفى خدمة الوطن فضلية . . ما رأيك؟» .

- «علمت أن الشرع أباح الأكاذيب البيضاء فى حالتين الأولى فى الصلح بين المتخاصمين، والثانية فى مجاملة الزوجة لزوجها حتى تشعره بالقوة والفخر والثقة . . » .

- «دع الشرع جانبًا، فالسياسة شيء آخر، هل قرأت شيئًا عن ميكافيللى أم أنك لا تقرأ إلا الكتب إياها . . » .

- «بل أعرف ميكافيللى صاحب كتاب الأمير . . » .

- «إنه أستاذ السياسة الواقعية فى العالم . . » .

- «أعلم . . » .

- «انتهى زمن الأنبياء يا عبد المغيث، وجاء زمن الأبالسة . . فكيف يعيش فيه الملائكة . . ؟» .

- «يستحيل . . » .

عاد إلى زنزانته وحيدًا إلا من همومه وأحزانه، فعلى الرغم من أمر الإفراج عنه، إلا أنه لم يستشعر مذاق السعادة التى كان يحلم بها، إنه لا يستطيع أن ينسى منظر راضى، وصمود رحاب، وفى ذهنه رسوم العناء والعذاب المخطوطة على وجوههم وأجسادهم، لو أن العالم كله زعم أن راضى خائن، وأن رحاب خائنة لما صدق، إن حزنه عليهما مختلط بالإعجاب إن لم يكن يحسدهما على ما هما فيه من نعمة. . أجل نعمة. . هكذا يخيل إليه، إنهما يقفان موقف الشجعان الأحرار، ولا يستسلمان للقهر والهزيمة، ويطلقان كلمة الحق دون خوف، ولا يفكران فى أية عاقبة لذلك. . أما هو. . فيريد النجاة، ويوفر على نفسه المتاعب، ليعيش كما يعيش عامة الخلق، وليتزوج وينجب أطفالاً، ويكسب المال، ويشترى سيارة، ويبنى بيتًا كالقصر، ويؤثث عيادة فاخرة، ولئن حاول التستر على نواياه فلن يستطيع؛ لأنه لا يمكن أن يخدع نفسه، ولو خدع الناس جميعًا. .

ووثبت إلى ذهنه فكرة جنونية هل يدق باب الزنزانة، ويطلب مقابلة ضابط الأمن، ويعلن أمامه فى صراحة وقوة، أنه لا يريد الإفراج، وأنه يلعن الثورة وأيامها السوداء، ويرفض الظلم والقهر، وينادى بحقوق الإنسان، ويطالب بالحرية، ويهتف بسقوط الديكتاتورية؟؟ .

استعاذ بالله واستغفر . . فكر ، ماذا يجنبى من وراء ذلك كله؟ لن يغير الوضع ، ولن يحقق أى نصر ، وسيزداد عدد المعتقلين واحداً، وقد يضربونه حتى الموت ، والنتيجة لا شىء . . وقال لنفسه : «كن عاقلاً يا عبد المغيث . . وتعلم كيف تخفى نواياك . وتناور الطغاة حتى تفلت من مخالبهم ، ثم افعل بعد ذلك ما تشاء . . تعلّم ولو لمرة واحدة حكمة من حكم ميكافيللى . . وتذكر يا عبد المغيث أن الحرب خدعة ، وأن المعركة مستمرة . . » .



[١١]

حينمت خرج عبد المغيث من المعتقل بعد هذه الأيام القلائل، لم يستطع أن يفتح عينيه على سعتها، كانت الشمس قوية مضيئة بأقصى درجات الإضاءة، وكانت العتمة قد أرهقته وأرهقت ناظريه، لا بد أن يتشرب النور جرعة جرعة حتى لا يصاب بضرر، أو هكذا خيل إليه، إن كل شيء يجب أن يكون عن روية وبحساب دقيق، واستشعر شيئًا غير قليل من السعادة، والسيارة تنطلق به فى شوارع القاهرة وإن شاب تلك السعادة قدر من الحزن على الصحاب الذين يلقون العنت خلف القضبان، ولا يعلم إلا الله مصيرهم، خاصة رحاب وراضى، سمع بائع الصحف ينادى «الأهرام.. الجمهورية.. الأخبار.. المصور.. روز اليوسف.. اقرأ محاكمة الإرهابيين الخونة..»، والناس يسيرون فى طريقهم دون أن يهتموا بما يسمعون، لكن البعض يشترى الصحف، ثم يضعها تحت إبطه على أمل أن يقرأها فى مكتبه أو بيته، والبعض

الآخر لا يشترى ظنًا منه أن ما تكتبه الصحف هو عين ما يسمعه فى الإذاعة أو يشاهده فى التليفزيون، شعر عبد المغيث برغبة جامحة فى أن يشترى الصحيفة، لكن الضابط المرافق أخبره بأنه لا يسمح له بذلك؛ لأنه ما زال فى حكم المعتقل، ولن تزول عنه هذه الصفة إلا بعد أن يصل إلى ديوان وزارة الداخلية، ويفرج عنه هناك حتى بقيت بعض الإجراءات الرسمية التى لا بد من اتخاذها، فى الداخلية استقبله درويش بك قائلاً:

-«مبروك.. ها قد وفينا بوعدنا، وعليك الآن أن تثبت إخلاصك لنا يا عبد المغيث..».

هز رأسه قائلاً:

- «بالتأكيد..».

- «سنرى.. نحن وراءك دائمًا، والويل لمن يخدعنا».

- «أعرف يا بك..».

- «إن خروجك بهذه السرعة يشبه المعجزة، ولهذا أقول إنك محظوظ جدًا..».

وقّع عبد المغيث على بعض الأوراق، وعمل له تحقيق شخصية «فيش وتشبيه»، قال له درويش بك:

- «تستطيع أن تنصرف الآن، هل معك نقود تكفى لسفرك إلى بلدتك؟ تستطيع أن تأخذ منى إذا لم يكن معك.. أم أنك تريد أن تفر بجلدك حتى ولو قطعت المسافة مشيًا على الأقدام؟».

وقهقه البك، بينما قال عبد المغيث:

- «معى ما يكفى وزيادة..».

- «مع السلامة.. سلم على الحاج متولى، قل له إننى لم أكتبك فى قائمة المعتقلين، ولكن جعلت الأمر مجرد استدعاء للسؤال والشهادة، ولولا ذلك لصعب خروجك..».

- «أشكرك يا سيدى».

نزل إلى الشارع، بدت خطواته ثقيلة غير قادرة على الإسراع، يخيل إليه أنه كالمقيد، ويريد أن يتعلم المشى من جديد، إنه يخطو بحساب، ويتلفت فى ريبة يمنة ويسرة، ويبدو له أن بعض الناس ينظرون إليه وكأنهم يعرفون قصته، وبعد فترة شعر برغبة جارفة فى أن يحكى للناس كل شىء، ويخبرهم أنه خارج لتوه من المعتقل، مر إلى جواره أحد باعة الصحف، فكر أن يشترى جريدة، لكنه تراجع إذ ليست لديه رغبة فى أن يقرأ شيئًا، ثم إنه قادم لتوه من أرض لا تحفل إلا بالعقاب لمن يستحق ومن لا يستحق، وقراءة هذه الصحف لن تغير من الواقع شيئًا، لا تقدم ولا تؤخر، ولا تسمن

ولا تغنى من جوع، أجل إنه جائع إلى الإحساس بالحب والأمان والحرية وانطلاق الروح إلى الآفاق العليا.. ركب الترام إلى محطة «أحمد حلمى»، وركب البيجو أو النعش الطائر كما يسمونه، ظل غارقًا فى أحلامه المختلطة، التى تتزاحم فيها الوجوه والأفكار والمواقف، لشد ما تؤلمه رأسه.. رحاب أيتها المسكينة لقد وقع عليك منى ظلم فادح، ونقض للعهود.. تلك هى الجريمة التى لا أستطيع الهروب منها.. وجهك الصامد الصابر يتجلى برغم الكدمات والسمجات كوجه ملكة، تجلس على عرش من الشوك وسط غابة أفريقية، إنك تحلقين فى السماء، ونحن نعبث على أرض الهوان والخطيئة، أنا ما كرهتك قط، ولكنى تزوجت غيرك... ربما لأنى نذل أو جشع أو ضعيف الإرادة.. أو.. أو لا يهم، ولكنى واثق أنك تحلقين فى أفق طاهر، لم تطله جناحان..

ولا يدرى أطال به الوقت أم قصر، كان هائمًا فى دنياه لا يسمع أو يعى شيئًا مما يردده مسجل السيارة، أو ما يقوله الركاب، لم يزل يعيش فى سجنه الانفرادى على الرغم من أنه محشور بين سبعة من الركاب وعدد من الأطفال.. نزل فى طنطا، كان رأسه حليقًا، ربط منديلاً أبيض على رأسه حتى لا يلفت إليه الأنظار، ذهب إلى موقف القرية، واستأجر سيارة خاصة، وبلغت السيارة مشارق«الحميدية» لمحه أحد المارة، فهتف باسمه وأعلن أن عبد

المغيث عاد، كانت السيارة تمشى ببطء والناس يجرون خلفها، وقفت لدى الباب، خرج الفرارجى وكأنه يفيق من كابوس رهيب، تمتم: «الحمد لله، جاء عبد المغيث.. زغردى يا أم الدكتور..» ازدحمت الدار، وأخذ الناس يغدقون عليه التهانى والتبريكات، علم عبد المغيث بمرض صهره الحاج متولى، قام على الفور ومضى بخطوات متسارعة والناس تتبعه، عجب إذ رأى صهره يستند على رجليه، ويقول:

- «كنت سآتى إليك على الرغم من تحذير الطبيب».

خرجت ملكة أمام الناس، وأمسكت بيده تقوده إلى الداخل، دون أن تشعر بالخجل أو الحرج، لكنها لم تأت تصرفًا مشينًا، التمس الناس لها العذر، ومدت صوانى الشربات الأحمر والأصفر، وقدمت الشيكولاتة والحلوى، وأخذ الشباب يرقصون بالعصى ويغنون، وهتف البعض بحياة الرئيس قائد الثورة، ورافع راية العدل والحرية..

اطمأن عبد المغيث على صحة الحاج متولى وفحصه متأنيًا، وقاس له الضغط، وأجرى تحليلاً مبدئيًا للسكر، واطلع على الفحوص والأدوية ونظام الغذاء، وقال:

- «الحمد لله يا حاج.. لا خطر الآن..».

قال الحاج فى سعادة :

- «شفيت منذ أن رأيتك سالمًا فى بيتى، لم أكن أريد من الله أكثر من ذلك . . » .

قالت أم ملكة :

- «لم يتحمل صدمة القبض عليك، فأصيب قلبه» .

- «أعرف يا حماتى، لكنى لا أدرى كيف أكافئكم» .

- «عودتك إلينا أعظم مكافأة . . وأعلم يا بنى أن ملكة لم تجف لها دمعة منذ أن أخذوك . . كاد يجن جنونها . . » .

- «أدعو الله أن يوفقنى لإسعادها . . » .

كانت ملكة تقف بعيدًا بعد أن ارتدت أفخر ثيابها، أخذت تشير إليه بإصبعها دون أن يراها أحد إلا هو، ابتسم، وتحرك ببطء صوبها، أمسكت بيده قائلة :

- «أعددت لك وجبة سريعة، لكنها لذيذة الطعم، سوف نأكل معًا . . أنا جائعة جدًا . . » .

دخل معها الغرفة، وأغلقت الباب، والطعام على مائدة صغيرة، كانت متأججة العاطفة قالت :

- «قلت لأبى لماذا لا يحبسونى معك؟ ألست زوجتك؟» .

- «إنهم لا يمزحون . . » .

- «كنا سنعيش فى زنزانة مغلقة ، ولن أملّ البقاء فيها حتى ولو حكم علينا بالسجن المؤبد . . » .

- «أحلام . . » .

- «لكنى كنت أسعد بالتفكير فيها . . » .

- «ذلك لأنك لا تعرفين شريعة الغاب . . » .

قالت وهى تلف ذراعها حول عنقه وتحتضن رأسه :

- «الغابة فيها جمال وروعة ، حيث تتسابق الغزلان ، وتغنى الطيور ، وتتقافز القرود برشاقة . . » .

- «وفيها الثعالب والذئاب والأفاعى ، فأنت لا تريدين إلا جانبًا واحدًا فيها» .

نظرت إليه فى عشق :

- «أوحشتنى يا زوجى الحبيب» .

- «لم يفارقنى خيالك . . سنعوض ما فات . . » .

- «لنأكل أولاً . . » .

- «تصورى أنى برغم جوعى الشديد لا أجد شهية للطعام . . » .

ضحكت فى مرح وقالت وقد توردت وجنتاها :

- «سمعتهم يقولون ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان . . » .

- «بالضبط . . » .

أطفأ باللقاء الصادق الصافى لهب الحرمان ، وظمأ البعاد ، وأكلا وشربا ، نسى فى تلك الصحبة الدافئة أحزان الساعات الطوال الممتلئة بالألم والشجن ، ثم ألقى بجسده المنهك على الفراش ، ونام نومًا عميقًا .

قال أبوها :

- «لا يصح أن يوقظه أحد ، كان الله فى عونه» .

- «لكنه يجب أن يعود لأبيه . . » .

- «بعد أن يصحو . . » .

قالت ملكة فجأة :

- «متى ستيم الزفاف يا أبى» .

- «عندما يسمح لى الطبيب بمغادرة الفراش . . » .

فى اليوم التالى ذهب الدكتور عبد المغيث إلى المستشفى والتحق بعمله ، تجمع الصحاب من الأطباء والزميلات الممرضات ، وموظفى المستشفى يلاحقونه بالأسئلة ، وهو يجيب بإيجاز ،

ويخفف من الأمر، ويؤكد لهم أنه لم يجد عناء يذكر، وأنهم أطلقوا سراحه بعد أن ثبتت براءته، سألوه عن راضي ورحاب، فقال «هما بخير» كانت هناك شائعة تقول إنهما قتلا، لكن عبد المغيث أقسم أنهما من الأحياء الذين يرزقون.. قال أحد الخبثاء:

- «لماذا احلقوا لك شعرك وشاربك؟».

- «من باب التخفيف، والوقاية الصحية مثلما يحدث فى الجيش..».

وضحكوا..



[١٢]

توجس الناس خيفة فى قرية «الحميدية» حينما خرج رمضان ابن العمدة من السجن بكفالة، فقد أعلن أنه وأبوه والأسرة سادة البلد، وليعلم البعيد والقريب أن تحديد إقامته لا يعنى زوال سلطانه، بل تأكيده وترسيخه فى قلوب الجميع، وإذا كان أبوه بالأمس يتحرج من البطش بالأعداء حفاظًا على منصبه، واحترامًا لرسالته، فإنه اليوم لم يعد هناك شىء من هذا القبيل، ولم تبق إلا الكرامة التى يزود عنها بالدماء والأرواح، والشرف العائلى الذى يستحيل التفريط فيه، لقد تم زفاف ملكة على الدكتور عبد المغيث وغنى الأهالى ورقصوا بالعصى وأكلوا وشربوا فى غيبة رمضان الحبيس، وتنكروا له ولأبيه العمدة الذى كان يحميهم ويغدق عليهم ويرعى مصالحهم، وكانت الأنباء ترد إليه فى محبسه، وهو يكاد ينفجر غيظًا، ولاحظت العيون المتلصصة أن بعض «الأشقياء» الغرباء القادمين من قرى أخرى يقصدون بيت رمضان حاملين أسلحتهم فى وضح النهار، ولم يكن من الصعب أن يتوقع الناس نذر الشر

التى تهدد مستقبلهم ، وتعكر عليهم صفو حياتهم ، فلن يضمن أحد النجاة إذا شب الحريق الكبير ، واشتعلت الحرب الأهلية فى القرية ، وليس فى وسع أحد أن يتنبأ باتجاهات الريح التى تنشر النار هنا وهناك ، وقد يعجز الراغبون فى إطفائها عن التصدى لها بكفاءة عالية ، وفكر الفرارجى المعرض لأخطار فى الأمر مليًا ، وقام فجر أحد الأيام واتجه إلى «المركز» وقدم تنازلاً عن شكواه الخاصة بإتلاف الزرع وسرقة البهائم ، وسجل فى تنازله أنه لا يتهم أحدًا ، كما سجل براءة رمضان ابن العمدة مما نسب إليه بخصوص هذا الموضوع ، وقبل تنازله وإن كان وكيل النيابة قال إن هناك حقًا عامًا للحكومة لا تستطيع التنازل عنه إلا إذا انتهى التحقيق ، وذهبت الشبهات عن الفاعل أو الفاعلين ، وتحامل الحاج متولى على نفسه ، وقصد بيت العمدة برغم الخطر الذى يتربص به ، لكنه لم ينس أن يأخذ معه عددًا من الخفراء وأعيان البلد ، كما أخطر المأمور عن محاولته فى عقد صلح يقى الأسرة والبلد شر الصراع ، وحينما بلغ الحاج متولى منزل العمدة ، سدّ عليه رمضان الطريق قائلاً :

- «ما الذى أتى بك إلى هنا؟» .

- «هذه فى مقام دارى ، وأنا عمك» .

رد رمضان فى غضب :

- «عَمَى الدبب ، لا أنت عمى ولا أعرفك» .

- «تأدب يا رمضان، ما جئت خوفًا منك، ولكن طاعة لله، وصلة للرحم. .».

«منذ متى عرفت طاعة الله، والناس يعرفون تاريخك. .».

- «عرفتها عندما أراد هو. .».

- «لا توبة لأمثالك. .».

- «تأدب فأنا عمك. . أقولها للمرة الثانية. .».

جاء صوت العمدة من الداخل:

- «تنح عن الطريق يا رمضان وإلا كسرت رأسك بعصاى. .».

- «أمرك يا سيد البلد. .».

وأخذ يضغط على أسنانه فى غيظ وغضب، لكنه كان واثقًا أن أية محاولة للصلح مآلها الفشل، وخاصة بعد أن تزوجت ملكة من الغريب، وتخلت عن ابن العم.

قال الحاج متولى وهو يقترب من العمدة الواقف فى البهو الكبير:

- «الفتنة نائمة يا عمدة».

رد العمدة على الفور:

- «لعن الله من أيقظها يا حاج متولى».

- «وأنا أريد أن نقتل الفتنة وندفنها معًا . . » .

- «كيف وقد أطلت برأسها ، وأصبح لها أتباع فى كل حارة وشارع وحقل . . » .

- «نبيدها ياعمدة كما تباد الآفات . . » .

- «لقد حقّرتنى أمام الناس ، وفعلت فعلتك الشائنة ، ونقضت العهد . . » .

- «ألأنى زوجت ابنتى على شرع الله» .

- «بل شرع الشيطان . . » .

- «أستغفر الله . . » .

- «أتزوجها لعبد من عبيدنا ، وتفضله على ابن الأصول . . » .

- «لقد تغير الزمن يا عمدة ، وكان اختيار البنت هو المسئول ، ولم أرد أن أكرهها على شىء لا تريده . . » .

- «رضخنا لحكم رجال الثورة ، وهذا على العين والرأس ، أما أن نخضع للنساء ، فهذا والله من علامات الساعة ، إنه شر وفساد كبير ، وما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين . . » .

أوقف أهل الخير الحوار العاصف ، ودعوا إلى الجلوس وشرب القهوة ، والتفاهم بالتى هى أحسن ، ثم طلبوا قراءة فاتحة الكتاب

تبركًا بالله ورسوله، وجلسوا يغمغمون، وظل الصمت سائدًا لفترة من الوقت، كان رمضان يقف بالباب متكئًا على بندقيته الطويلة، يرقب المشهد بعينين تقدحان شررًا، وشيطانه يوعز إليه من آن لآخر أن يسدد بندقيته إلى صدر الحاج متولى، وينهى الأمر إلى الأبد، ويعدها يقضى على الدكتور عبد المُغيث وأبيه، وعندها ستأتى إليه ملكة راكعة ذليلة، ولن تجد فى الدنيا مأوى لها سوى بيته، لكنه تذكر أيام الحبس القاسية، فراوده الخوف، ترى ماذا يحدث إذا ساقوه إلى المشنقة، فلم يحصل على «عنب الشام ولا بلح اليمن» كما يقولون؟ إنه يعلم أن الأيام غير الأيام، والثورة لا ترحم أبناء الأكابر والأغنياء، بل تتشفى وتتلذذ بالتنكيل بهم، فلماذا لا يعتصم بالصبر، ويلجأ إلى الحيلة، عندئذ يستطيع أن ينفذ خططه بروية وإحكام، هكذا قال له أبوه بالأمس، ولكن كلمات أبيه لن تصادف هوى فى نفسه، وهو اليوم يرى فى تلك الكلمات قدرًا لا باس به من الحكمة، ووسوس له شيطانه مرة أخرى، فالسلاح فى يده، ويستطيع أن ينهى القضية بضغطة واحدة على الزناد، السلاح يحسم ما لا يُحسم، لو لم ينقض الجيش على فاروق وينتزعه من فوق كرسيه، ويرميه فى سفينة تهرب به إلى بعيد، لما تغير شىء والمثل الشعبى يقول: «الضربة السابقة سابقة».

فى المجلس أخذوا يحتسون القهوة، وكان بينهم تاجر القطن الكبير الذى أفلس بعد التأميم. . رشف رشفات متمعنة من فنجانه، ثم قال:

- بسم الله الرحمن الرحيم. . ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦].

هز الجميع رؤوسهم قائلين: «صدق الله العظيم. .».

وقال:

- «الصلح خير».

- «المسامح كريم».

- «ولا يحدث من أمور الدنيا إلا بقدر مكتوب».

وهكذا أخذ يتحدث تاجر القطن المفلس الحاج مصطفى، والقوم يهزون رؤوسهم تأمينًا على ما قال، والرجلان المتخاصمان صامتان، وصاح رمضان الواقف بالباب على أحر من الجمر:

- «ادخل فى الموضوع يا حاج مصطفى».

- «تعال واجلس معنا يا رمضان».

- «لا يجلس إلا أبى، ولا رأى سوى رأيه. .»

- «تعال لتكون رأسك برأسنا. .».

- «لا شأن لأحد برأسى، فهى عالية دائمًا . . » .

- «قالها الزعيم . . ارفع رأسك يا أخى فقد مضى عهد الاستعباد . . » .

- «إنه لم يمض ولم يعد، والدنيا هى الدنيا . . » .

ضحك الحاج مصطفى، ثم مال على العمدة قائلاً :

- «ابنك ينطق بالحكمة «ماشاء الله» أما أنا شخصيًا فقد أفلست، ومن يومها لم أرفع رأسى، وكأنى فى صلاة دائمة . . تعلمت الخشوع الدائم . . » .

واستطاع الحاج مصطفى أن ينتزع الضحكات من بين شفتى العمدة، ثم أخذ يطرح موضوع الصلح، الذى يهدف إلى إعادة العلاقات إلى مجراها الطبيعى ، وإلغاء إيقاف العمدة، ورجوعه معززًا مكرمًا إلى منصبه، وكانت مشكلة المشاكل هى زواج ملكة، ورأى الحاج مصطفى أن مسألة الزواج طلب وقبول، وإنها تخص طرفين لا ثالث لهما فى حقيقة الأمر، وعسى الله أن يبدل رمضان خيرًا منها، فالحميدية مليئة بالجميلات الطيبات بنات الأصول، ومن القريبات من لا ينقصن عنها جمالاً ودينًا وحسبًا ونسبًا، ولعل زواج رمضان من أخرى يكون فيه خير كثير، وهنا رفع الحاج متولى رأسه، وقال :

- «سأزوجه بنفسى «إن رمضان ابنى» أمس واليوم وغدًا. . ».

ضحك رمضان فى غيظ، وقال:

- على رأى المثل. . (زَىّ الوزّ، حنيّــة بلا بز). . ها. . ها»
ولأول مرة يقف العمدة ساخطًا على ولده، ويقول:

- «الزم حدودك يا حيوان. . ».

وهمّ أن يبطش به، لكن الجالسين منعوه.

ووقف الحاج متولى، ثم قصد العمدة، وقبّل رأسه، ثم عانقه وهو يقول:

- «حقك علىّ يا عمدة. . لقد عشنا إخوة خمسة وعشرين عامًا، وأكلنا معًا عيشًا وملحًا، وتآخينا على السراء والضراء، ولم يستطع الشيطان أن يعكر صفونا مرة. . ».

لا يستطيع أحد فى القرية أن يجزم بأن الجو قد صفا تمامًا من غبار الخماسية الخانق الساخن، ومع ذلك ساد الجميع شعور بالارتياح والطمأنينة، وانتفى الحرج الذى صاحب الفترة الماضية حينما كان الناس يخافون أن يذهبوا إلى هذا الجانب أو ذاك، وأمن الناس على دمائهم وأموالهم وزروعهم وبهائمهم، وأخذ خطيب المسجد يعظم ويكثر من الحديث عن التسامح والمحبة والأخوة الإسلامية، وضرورة التضامن فى هذه الأوقات العصيبة؛ ذلك لأن

اليهود وأمريكا وأحزابهم يعدون العدة لضربنا جميعًا، فى محاولة للقضاء على الإسلام والمسلمين، منتهزين فرصة التفرق والخصومات التى نشبت بين زعماء الأمة وشعوبها.

●●●

فى ليلة من ليالى الصيف المقمرة رآها رمضان تخطر تحت عباءة البدر الفضية كعذراء من الجنة، كانت تمضى فى طريقها سعيدة رشيقة.. كانت كالحلم الجميل الذى تعشقه طويلاً.. شعر بذل الهزيمة والحرمان.. كان عائدًا لتوه من «غرزة» الحشيشة، قال وهو يترنح:

- «هذه الملعونة يجب أن تموت».

قال له صاحب وهو يحاوره:

- «أتقتل من تعشق؟».

- «لقد فقدتها، ولم يبق لى شىء منها».

- «بقى العشق يا رمضان».

- «أى عشق هذا يا «مسطول»؟».

- «العشق الذى لا يموت أبدًا.. الحلم الذى يجعلها معك دائمًا.. تحادثها وتحادثك، وتحتضنها وتقبلها..».

- «ألم أقل إنك «مسطول»؟».

- «إذن فأنت لا تعرف الحب الحقيقى . . ».

- «بل أعرفه . . هو أن تمتلكها بين ذراعيك، وتنجب منها أطفالاً . . ».

- «هذا حب البهائم والحمير . . ».

- «وهل الإنسان إلا حيوان ناطق . . ».

- «بل كائن عاشق، وإذا تخلى عنه العشق أصبح فى عداد الحيوانات».

- «لقد أسرفت فى تدخين الحشيشة . . ».

ضحك صاحبه وقهقه قائلاً: «نحن ثوران يجران محراثًا . . ».

●●●

[١٢]

أذن الفجر ، وأفاق الفرارجى ، كعادته كل يوم من غفوته وهو يتمتم . . «سبحان من أمات الليل وأحيا النهار.. أصبحنا وأصبح الملك لله ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم» ، ثم أخذ يحاول إيقاظ زوجه تفاحة التى كانت تغط فى نوم عميق ، فوجد قدرًا من الصعوبة فى ذلك ، مما جعله يلومها ، ويتهمها بالسمنة نظرًا لكثرة ما تأكل هذه الأيام ، كان يحسب أنها لن تعى كلماته، لكنها ردت غاضبة «لقد عشنا سنين طويلة ، ونحن نربط الحزام على بطوننا ، وجاء اليوم الذى ننعم به فى ظل ابننا الوحيد يا رجل» ، ولا شك أن استفزازه لها جعلها تفيق تمامًا ، وتقصد الإبريق الفخار الذى تتوضأ منه عادة ، وقال الفرارجى قبل أن يخرج :

- «لم يزرنا عبد المغيث منذ مدة ، ترى هل نسينا؟» .

- «ولماذا لا نذهب إليه نحن؟» .

- «لا أريد أن نشغله عن عمله يا تفاحة» .

- «دائمًا تلتمس له ولك المعاذير . . » .

- «إذا كبر الأولاد وتزوجوا يا تفاحة يصبح لهم حياتهم الخاصة إنهم يبدأون الطريق، ويبنون مستقبلهم . . وهذا حقهم . . » .

- «ونحن الذين ربينا وسهرنا وضحينا، أليس لنا أيضًا حق . . » .

- «إنه لا يبخل علينا بشىء» .

- «ليس المال هو ما نحتاجه . . أنت لا تعلم . . أريد أن أقف قبالته وأنظر إلى وجهه فقط . . هذا أثمن عندى من كنوز قارون . . » .

- «أما أنا فأكتفى بالتفكير فيه، والدعاء له، هذا يبهج قلبى . . » .

- «البعيد عن العين بعيد عن القلب يا فرارجى يا ناصح . . » .

- «ليس هذا صحيحًا . . إنه معى دائمًا . . لا يغيب عنى . . » .

صمتت برهة ثم قالت :

- «سمعت أن زوجه ملكة حامل» .

- «كنت أعرف ذلك . . » .

- «ومن أخبرك؟» .

- «قلبى يا تفاحة . . » .

- «تنجيم أم سحر ، أم تراك تحضر الأرواح . . اذهب يا رجل إلى المسجد ، ولا داعى للتخريف . . » .

اتجه صوب الباب ، ثم توقف مرة أخرى ، وقال :

- «الحقيقة أننى تشوقت إليه ، ولهذا أوافقك على أن نذهب لزيارته» .

بدت الفرحة على وجهها :

- «هذا هو التصرف الصحيح ، ولسوف آخذ معى له زوجين أو ثلاثة من الحمام ، وذكر بط ، وفطير مشلتت وقطعتين من الجبن القديم ، إنه مغرم بالجبن القديم وبالسمن . . » .

سار فى الطريق المعتم ، وبيده مسبحته ، كان يسبح ويستغفر ، ويشعر فى داخله بارتياح كبير ؛ لأنه سيذهب لزيارة وحيده ويضمه إلى صدره وسيقبل ملكة الطيبة الوديعة الجميلة بنت الأصول ، لقد أصبح يحبها ، لم يجد فيها شيئًا ينفره منها ، وهى دائمًا تسعد لمقدمه ، وتغالى فى الترحيب به وإكرامه ، وتفاحة تقول له إنها لا تفعل ذلك إلا لأنها تحب عبد المغيث ، وهل كانت ستجد فى الدنيا كلها أفضل من عبد المغيث؟ وحاول الفرارجى أن يتخلص من كل شىء يفكر فيه إلا ذكر الله والتسبيح والاستغفار ، ويحمد الله على

أن حياته رحلة طويلة من الطاعة والعمل الجاد، لقد أصبح فى الخامسة والستين من عمره، أيامه الجميلة كانت قليلة، لكن يومًا من الفرح كان يسعد قلبه عامًا . . بل أعوامًا، ويمحو آثار الابتلاءات التى كثيرًا ما تعرض لها، الواقع الآن أنه سعيد جدًا، وراضٍ جدًا، ويحمد الله، ولا يطلب منه المزيد إلا فى سجال الستر، واقترب من شجرة الجميز الضخمة العتيدة العتيقة، ودخل تحت خيمتها الداكنة، متجهًا صوب المسجد الذى لا يبعد عنه سوى أربعين مترًا أو أقل قليلاً، أفاق من استغراقه فى ذكر الله على صوت الرصاص، واصطدم بجسده النحيل الواهى أشياء أوقعته على الأرض، تحسس آثار الألم فى صدره وبطنه، وجد سائلاً ساخنًا لزجًا . . لم يستطع أن يكمل حركاته الباحثة فقد دارت رأسه، واختلطت فيها الأمور، أدرك بحثه أنه أصبح قريبًا جدًا من الله أخذ يردد الشهادتين، وتقاطر المصلون صوب الصوت، وقدم الجيران نساء ورجالاً يحملون الشعلات الجازية، كان صدر الفرارجى يعلو ويهبط بسرعة وعيناه دامعتان تحملقان فى المجهول، وتصادمت الأجساد والأصوات وصرخ بعض النسوة، وخلال دقائق استيقظت «الحميدية» عن بكر أبيها، وكبّر الحشد حتى لكأن أهل القرية جميعًا كانوا على موعد مع القدر، وأتى الخفراء وشيخهم، كما شق الحشد موكب العمدة الذى عاد إلى منصبه منذ فترة، وكان الفرارجى قد صعدت روحه إلى بارئها، وأصبح راقدًا بلا حراك، لا يشعر بشىء ما حوله، ولا

يكترث لما يجرى، لم يبق منه إلا الجسد الخامد الذى أبلته السنون والأحداث، مات غيلة فى لحظات دون أن يذهب إلى الطبيب، أو يعانى فى الليالى الطويلة آثار المرض، وهمّ الرجال أن يحملوه إلى داره، لكن العمدة أمرهم بأن يضعوا فوق جثته غطاء أبيض، ولا يحركوه من موضعه حتى تأتى الشرطة والنيابة.

وتهامس الناس، وكان همسهم أقوى من الظنون والتخمينات، فليس فى القرية من لا يستطيع أن يمسك بأسباب الحقيقة المرة، ليس فى القرية كلها أعداء للفرارجى سوى واحد، هذا الواحد هو الذى سرق البهائم، وأتلف الزرع، وامتلأ قلبه بالحقد الأسود، منذ أن ذاق مرارة الهزيمة، حينما تزوج عبد المغيث من ملكة، وكان مما يؤلم الناس أن الفرارجى نفسه لم يرتكب إثمًا، كانت جريمته الوحيدة أنه أب للدكتور عبد المغيث، وأجمع أهل القرية أن الجريمة فظة بشعة، تفيض بالغدر والخيانة والخسة، وأن الفرارجى شهيد من الشهداء.

وجاءت تفاحة بعد أن بلغها النبأ المفجع، وهى تولول، ثم ألقت بنفسها على زوجها النائم فى سكون أبدى، كانت تندب زوجها وحظها، والناس يذرفون الدموع، وصاح شيخ المسجد فى انفعال:

- «ويلكم يا أهل الحميدية.. قتلتم وليًا من أولياء الله الصالحين..».

ونادى منادٍ وسط الحشد قبل أن تشرق الشمس :

- «لنجلس جميعًا حول الشهيد حتى تأتى الحكومة وتأخذ له حقه ولا يصح أن نغادر هذا المكان إلا إذا قبض على الجانى» .

قال العمدة وقد تندى جبينه عرقًا :

- «تعلمون أن التجمهر ممنوع ، ولن يفلت المجرم» .

جاءه صوت من بعيد مجهول الاسم والمصدر :

- «المجرم معروف يا عمدة . .» .

انسحب العمدة ، وترك الخفراء لحراسة الجثة ، وأصدر تعليماته بالاتصال بالمركز لاستدعاء النيابة والشرطة والطبيب الشرعى ، وعندما دخل العمدة بيته وجد رمضان قبالته :

- «هل فعلتها يا كلب؟» .

- «لم أفعل شيئًا . .» .

- «جئت لنا بالعار الأبدى الذى سيلحق بنا طول العمر . .» .

- «أنت تتهمنى بدون دليل» .

- «أتطلب من مثلى الدليل وأنا أعرفك؟» ثم استطرد :

- «أنت النهاية السوداء لعائلة كان لها اسمها وشرفها . .» .

- «كيف وأنا حامى حمى العائلة؟ . .» .

أمسك بطوق ابنه وجذبه فى جنون :

- «أى سبب يدعوك لقتله؟» .

- «أردت أن أجتث الجذور . .» .

- «ولماذا تنقل نقمتك إلى الضعيف المسن المسكين؟» .

- «عندما استعصى على قتل عبد المغيث، وأقلب حياتهما إلى الجحيم . .» .

خلع العمدة حذاءه، ثم أمسك به، وأخذ يضرب رأس رمضان الذى وقف جامدًا كالصنم .

- «أكنت تريد أن أستسلم للهزيمة فتضيع هيبتنا؟ . .» .

- «لم تكن فى يوم من الأيام ذا هيب . . وقد اخترت مصيرك الأسود بنفسك . . قسمًا عظمًا لأسلمك للشرطة، ويكون مصيرك الشنق ونار جهنم . .» .

قال رمضان وهو يفر هاربًا :

- «لن ترى وجهى اليوم، وستكون بدونى كسير الجناح يستهزء بك الناس، وتنهشك الكلاب . .» .

- «وكيف أستطيع أن أعيش بعد اليوم؟» .

وفرّ رمضان فى لحظات، وتحامل العمدة على نفسه، واستدعى زوجه على عجل، وقال لها:

- «كوب ماء..».

وعادت إحدى بناته بكوب الماء، فوجدت أن أباها قد مال رأسه على مسند الأريكة فى بهو البيت وقدمت له الكأس فلم يتحرك ونادته، فلم يرد.. أمسكت بيده فسقطت منها، صاحت مستنجدة، حملوه إلى السرير الحريرى، وجاء الطبيب ليعلن أن الأوان قد فات.

- «البقية فى حياتكم فى حضرة العمدة..».

لم يحفل الناس كثيراً بموت حضرة العمدة، وظلوا ملتفين حول جثة الفرارجى، قال شيخ المسجد: «الحمد لله.. عندنا نعشان، واحد للفرارجى والثانى لحضرة العمدة.. وستكون الجنازة واحدة.. ومن الأفضل أن يقتصر العزاء على تشييع الجنازة، ولا داعى إطلاقًا لأن تقام سرادقات العزاء، وهذا أقرب إلى الشريعة ولا شفاعة فى الموت، ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨]، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ..﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧].

أصر الحاج متولى أن يقيم سرادقًا ضخمًا للعزاء فى الفرارجى،

كما كتب نعيًا بالأحرف الكبيرة له فى أكبر صحف العاصمة، واستدعى مقرئًا مشهورًا من مقرئى الإذاعة والتليفزيون، ونحر الذبائح وبنى للفرارجى مدفنًا خاصًا، وامتلأ السرادق عن آخره فى المساء، وكان فيهم عدد كبير من الأطباء زملاء عبد المغيث، بينما بدا السرادق لمقام لحضرة العمدة شبه خاوٍ لا يضم إلا عددًا قليلاً من المعزين من القرية والقرى المجاورة، واختفى رمضان ولم يعثر له على أثر، وأخذ رجال الشرطة يجدون فى البحث عنه . .

قالت ملكة، وهى فى بيت الفرارجى - لزوجها :

- «لا أجد الكلمات القادرة على التخفيف عنك . . » .

- «ليس للكلام قيمة الآن، يكفى أنه راح شهيدًا . . » .

- «أتعتقد أن السبب فيما جرى من مآسٍ لو استطعت لفديته بروحى . . وأنت تعلم صدق مشاعرى . . كان رجلاً مباركًا طيبًا . . » .

- «فى الموت لا ينوب أحد عن أحد . . هذا أجله، ولا شفاعة فى الموت . . لا تقلقى، فأنا رجل مؤمن بالله وقدره . . » .

وجاء الحاج متولى، وقال :

- «شد حيلك يا ولدى . . واعتبرنى مثل أبيك تمامًا . . أعلم أننى لست فى صلاحه وتقواه، ولكنى . . » .

قال عبد المغيث :

- «لا تشق على نفسك، أعرف مشاعرك جيداً . . أنت أبى . . » .

احتضنه الحاج متولى وبكى، وفردت ملكة ذراعيها وأحاطتهما معًا، وأخذت تشهق باكية، بينما عادت تفاحة وقد تورمت عينها إلى الولولة من جديد . .

●●●

قبل أن يعود عبد المغيث إلى مقر عمله «بمستشفى المبرة» بطنطا بعد تقبل العزاء، والإجابة على أسئلة الشرطة والنيابة، طلبت منه ملكة ألا يسافر إلا ومعهما أمه تفاحة، فليس من المعقول أن تترك وحدها فى مثل هذه الظروف القاسية، لكن أمه قالت فى إصرار :

- «مستحيل أن أغادر بيتى . . اذهب أنت يا ولدى إلى عملك، لكننى سأبقى لأواصل رسالة أبيك وأطلب ثأره . . » .

كان يعلم أن أمه تحت وطأة الحزن والانفعال الشديد، ولم تبرد الجمرة المتقدة فى قلبها .

- «لقد أديت يا أمى رسالتك على الوجه الأكمل، وآن لك أن تستريحى» .

- «مات أبوك واقفًا، وأنا على طريقه» .

ولم تجد المحاولات العديدة فى إثنائها عن عزمها ، ولهذا كان عبد المغيث يفكر فى حل بديل ، وكان أقرب حل أن يأخذ عطلته الدورية ويقيم معها شهرًا ، حتى تهدأ النفوس وتستقر الأوضاع .

وكان عبد المغيث يفكر - كفلاح - فى الثأر لأبيه ، ألم يقل الله فى كتابه العزيز : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ ﴾ [البقرة : ١٧٩] ، لكنه ما زال يعوزه الدليل الدافع لإدانة رمضان ، وما زال ينتظر ماذا ستفعل السلطة ، أليس من الجائز أن تقوم الحكومة نيابة عنه بتوقيع العقوبة على الجانى؟ إنه طبيب مسلم متحضر ، ولا بد أن يغالب الغضب الذى يعصف بأمنه وراحته .



[١٤]

ذهب الحاج متولى وزوجه إلى الحج لأداء الفريضة، وحاولوا تأجيل الحج بالنسبة للملكة لأنها حامل، فقد تعرضها المشقة للخطر، لكنها أصرت وألحت، كانت تشعر أنها فى مسيس الحاجة إلى هذه الرحلة القدسية، لتعبد الله وتشكره، ولتتصدق على الفقراء اعترافًا بفضل الله عليها وعلى زوجها، كان تخفق فى قلبها مشاعر حلوة، وتهيم فى عالم فذ لا مثيل له وهى تتصور نفسها تقبل الحجر الأسود، وتتمسح فى أستار الكعبة، وتروى ظمأها من ماء زمزم، وتصلى فى مقام إبراهيم أبى الأنبياء، وتزور الرسول الأعظم ﷺ، وتستعيد الذكريات الرائعة على الأرض الطيبة التى تخفق حولها وتتطلع إليها قلوب مئات الملايين فى أنحاء المعمورة.

قالت لعبد المغيث:

- «سأدعو الله أن تكون وزيرًا».

- «وما قيمة ذلك؟».

- «المجد والسلطة..».

قال ساخراً:

- «فى زمن الرصاصات الطائشة؟».

- «ستكون أنت عندئذ رجلاً آخر..».

- «بل ستتلاشى بقية الفضائل التى أحاول التشبث بها».

- «المنصب لا يفسد إلا الفاسد».

- «لم يعد الإنسان فى عصرنا ملك نفسه».

- «المهم الجوهر..».

- «لقد ران السواد على القيم الجميلة، ومن أراد أن ينجو فلينس الجوهر، وليشارك فى مواكب المظاهر الجوفاء..».

- «تنظر إلى الدنيا متشائماً».

- «لأنى أرى الواقع المحزن بكل مفاسده».

- «إذن ماذا أدعو لك فى البيت الحرام..».

- «أن أعيش وأموت مثل أبى..».

ضحكت قائلة:

- «مستحيل، أنت مغرم بالفقر والعناء..».

- «كل ما يهمنى أن يرضى الله عنى».

- «ولماذا تظن أنه لن يرضى عنك».

- «لكثرة ذنوبى..».

- «أنت أفضل بكثير من غيرك..».

- «لكن هناك كثير أفضل منى ألف مرة..».

- «مثل مَنْ؟».

- «أوه.. لا أستطيع حصرهم.. رجال باعوا الدنيا، وجاهدوا فى الله حق جهاده، وآثروا ما يبقى على ما يفنى، وواجهوا الظلم بسواعدهم الواهنة، ولم يفلسفوا ضعفهم..،».

- «عمن تتكلم؟».

- «عن الصادقين الصادمين الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر».

- «وأين أجدهم..».

- «فى كل مكان وزمان».

- «ولماذا لا نذهب إليهم؟».

- «إذا اقتربنا منهم احترقنا» .

أصابها الذهول لما تسمع ، وقالت :

- «هل نحن شياطين والعياذ بالله . . » .

- «لا أقصد . . لكننا من عامة الناس أصحاب القيمة المحدودة ، وأمثالنا لا يصلحون إلا لتيسير الأعمال السطحية» .

- «أنت طبيب محترم تداوى جراح الناس وأمراضهم» .

- «مئات الألوف مثلى إن لم يكن الملايين» .

- «وهذا شىء طيب . . » .

- «لكننا فاسدون . . » .

- «أنا وأنت؟؟ مستحيل . . أنت سيد الناس ، وأنا لا أعصى الله ، مع أنى جميلة ، و . . » .

قاطعها قائلاً :

- «أتعرفين شيئًا عن مجتمع الصفوة؟» .

- «الحكومة » .

ضحك قائلاً :

- «أنا أقول الصفوة ، لا المستنقع» .

- «أتعرفين من هم الغرباء؟» .

- «البعيدون عن أهليهم ووطنهم» .

- «أما الصفوة يا ملكة فهم الأتقياء الأنقياء الذين : ﴿ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾ [الأحزاب : ٢٣] .

- «الذين يصلحون حينما يفسد الناس» .

- «إذن فأنا وأنت من الصفوة ومن الغرباء» .

وأخذ يشرح لها الأمر باستفاضة ، ويجيب على أسئلتها المتعددة ، وهى مستغرقة فيما يقول ، مأخوذة به ، لقد نقلها إلى عالم آخر أكثر بهاء وجمالاً ، لكنها كانت تستشعر خوفًا غامضًا لا تدرى مصدره ، وصمتت هنيهة ، ثم حملقت فيه بعينها الجملتين قائلة :

- «قلبى يحدثنى بأنك توشك أن تقع مرة أخرى فى أيدى العسكر . . » .

ثم ربتت على بطنها قائلة :

- «يجب أن نفكر فى هذا الجنين الذى لم ير النور بعد ، والذى يستحق أن أضحى من أجله بحياتى كله . . » .

كان اختفاء رمضان لغزًا محيرًا ، وتضايق أهل «الحميدية» من

تقاعس السلطة عن الإمساك به، برغم مرور فترة ليست بالقصيرة على هروبه، قال واحد منهم لو أن رمضان كان من السياسين المعارضين للثورة لأمسكو به بين يوم وليلة، وأخذت الشائعات تنتشر هنا وهناك عن اختفاء رمضان، فمن قائل إنه لحق بمطاريد الجبل فى الصعيد، وأن أمه تبعث إليه بالمال عن طريق الوسطاء، ومن قائل أنه تسلل مع تجار الإبل والأغنام والماشية عبر الحدود بين مصر والسودان، وثالث زعم أنه تخطى الحدود إلى ليبيا، وكان من أغرب ما قيل إن رمضان سافر إلى قطاع «غزة» جنوب فلسطين، لكى يهرب إلى إسرائيل، بينما أكد أحد أصدقائه من الحشاشين، أنه مقيم فى مخبأ أمين بالحميدية، ولم يغادرها منذ أن وقعت الواقعة، وزعمت إحدى الخادمات فى بيت العمدة أنه أتى ذات ليلة، وسلم أمة توكيلاً كى تستلم ميراثه من أبيه، ثم تبعث به إليه، لأنه فى مسيس الحاجة إلى المال، وبعد أن تسلم الحاج متولى منصب العمدة مرة أخرى رسميًا، أوعز إلى رجاله بأن يختلطوا برفاق رمضان من الحشاشين والفاسدين، ويتنسموا الأخبار، لعلهم يستطيعون الاهتداء إليه، وتطوع الحاج متولى بكتابة إعلان مدفوع الأجر، وبه صورة فوتوغرافية لرمضان، ورصد مكافأة مالية كبيرة لمن يرشد عنه، ولم يكتف بذلك بل اتصل بصديقه درويش

بك فى الداخلية، وشرح له أهمية الموضوع حتى تخمد الفتنة نهائيًا فى القرية، فوعده بأن يوصى أصدقاء فى المباحث الجنائية لتكثيف البحث عنه . .

وقال درويش بك للحاج متولى :

- «نحن مشغولون، والأيام القادمة ممتلئة بالأحداث فكن على حذر . . ».

- «مؤامرة جديدة يا بك؟».

- «بل حرب تأكل الأخضر واليابس».

-«مع مَنْ؟».

- «وهل لنا عدو غير إسرائيل».

- «الأعداء كثيرون فى الداخل والخارج، لكن إسرائيل هى الأولى . . ».

- «كان الله فى عونكم، تحاربون على ألف جبهة . . ».

انطلقت الحرب الإعلامية حامية عاصفة، عبد الناصر يعقد المؤتمرات الصحفية، ويخطب فى الجماهير، وهيكل ينشر صور الطائرات «التى ستحمى سماء الشرق الأوسط»، وصور الجنود الضباط فى جيشنا الجرار المزود بأحدث الأسلحة الروسية، ولم يعد

للناس حديث غير الحرب، لكن عامة الناس يشاهدون ما يجرى باطمئنان كبير، فهم يعتقدون أنهم فى مأمن، وأن هناك من يحارب عنهم، وأن أبطال الثورة سيقهرون إسرائيل وحلفاءها مثلما قهروا أعداءهم فى الداخل..

وأخذ المدن يكدسون المؤن مخافة أن تشتعل الحرب، وتشح الأقوات، وما أن جد الجد وتأزم الموقف، حتى أعاد الناس التفكير مرة أخرى فيما يجرى، وتذكروا ما حدث منذ أحد عشر عامًا فى العدوان الثلاثى على مصر، ومأساة المهجرين من منطقة قناة السويس، وتمتم رجل عجوز على التقاعد:

- «الحرب ليست لعبة شطرنج».

رد آخر:

- «رئيسنا يجيد لعب الشطرنج..».

- «فى الحرب الجنود من لحم ودم، إنهم يموتون فعلاً».

- «وماذا نفعل؟ لقد كتب علينا القتال».

- «بل كتب علينا الوبال».

- «وسينصرنا الله يا شيخ».

- ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ.. ﴾ [الحج: ٤٠].

- «هذا حق . . فهل نصرناه أم عصيناه؟» .

قال الشيخ المتقاعد :

- «لا بأس . . إذا انهزمنا فسنعيش ، أما إسرائيل إذا انهزمت فستزول من الوجود» .

- « فى ستين داهية» .

- «لكنها لن تزول على الأقل فى زماننا» .

- «كلامك انهزامى ، ويضعف الروح المعنوية ، لو علموا بأمرك لسجنوك . . » .

- «لم يبق فىّ شىء أحرص عليه إلا إيمانى ، فليأخذوا أيامى القليلة الباقية ، فلن تقدم ولن تؤخر . . » .

- «عندما يشيخ الإنسان . . » .

قاطعة قائلاً :

- «يخرف . . أعرف ، لكنى أقولها صريحة المغرورون المتألهون لا يحققون نصراً أبداً . . » .

- «ألا تعلم أن المغول والتتار وهم ذوو بداوة وجهل قهروا أكبر قوة فى العالم . . » .

- «لكنهم انهزموا . . أين هم الآن؟ ذهبوا وبقى الإسلام، بل الأعجب من ذلك أنهم اعتنقوا ديانة المنهزمين . . ».

- «سننتصر . . سننتصر».

- «قل : إن شاء الله . . ».

صمتت دقات الطبول وخرست ألسنة الخطباء، وانتهت الأسطورة فى أيام قليلة، وامتلأت صحراء سيناء بالحفاة العراة، وبالقتلى والجرحى وأطنان الأسلحة المستوردة، وتورمت أقدام الهاربين من ساحة الجحيم، وتحطمت رقعة الشطرنج وبنادقها، وعلى منبر عتيق يفوح عبير الماضى العظيم، والذكريات الشامخة، وقف خطيب جريح القلب والصوت، طويل القامة، أسمر الوجه يناشد المصلين «سنحارب ولن نستسلم . . »، وخرجت ملكة إلى الشارع تسأل الرائحين والغادين عن رجلها الدكتور عبد المغيث الذى أخذوه إلى مستشفى الميدان ولم يعد حتى اليوم، مع أن الحرب توقفت، والمصيبة حلت .

قال أبوها الحاج متولى وهو يراها حاسرة الرأس تكاد تجن :

- «إنهم عائدون» .

- «هناك من لن يعودوا أبدًا . . » .

- «ثقى فى لطف الله . . » .

- «يكاد عقلى يذهب . . » .

- «الأطباء فى الحروب لهم معاملة خاصة تنظمها القوانين الدولية . . » .

- «لكن المدافع والقنابل لا تفرق بين الضحايا، ولا تعرف القوانين إنها عمياء كأصحابها» .

- «سأذهب إلى القيادة وأستفسر عنه . . » .

- «وأين هى القيادة؟ لقد تهدم وتبعثر كل شىء . . قسمًا عظمًا لو أصابه شر لأصبحت إرهابية وأقتل من تسببوا فى قتله . . » .

- «اعقلى يا ابنتى . . وعودى إلى بيتك . . إن إرادة الله غالبة . . ولا تنسى أنك على وشك الوضع . . عودى من أجل زوجك ومن فى بطنك من أجلى أنا يا ملكة . . وسيفرج الله الكرب . . » .

وهامت النسوة فى الطرقات يبحثن عن أولادهن وأزواجهن وإخوتهن، ولا يجدن من يجيب على تساؤلاتهن، أو يرشدهن إلى ماذا يفعلن، وازدحمت المساجد بالمصلين والداعين والذاكرين، ونداءات انطلق «يا لطيف الطف بنا نحن عبيدك كلنا» .

ويضحك العجوز المتقاعد فى أسى، ويقول دامع العينين :

- «لا تعرفون الله إلا فى وقت الغرق» هكذا فعل فرعون عندما وجد نفسه يغرق إذ قال: ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ..﴾ [يونس: ٩٠].

سأله سائل:

- «هل إسرائيل انتصرت لأنها على حق..».

- «لا.. لأننا على باطل..».

- «وكيف عرفت؟».

- «اعرف الحق تعرف أهله».

- «وما رأيك تنحى الرئيس عن السلطة؟».

- «لقد رجع عن قراره..».

- «والمشير قائد الجيش ووزير الحربية انتحر».

- «لكن الموت من نصيبنا نحن».

- «محاكمة قادة أسلحة الجيش بدأت..».

- «لكن حياة الضحايا انتهت ولن تعود..».

- «ماذا تريد أن أفعل..».

- «ابك على خطيئتك..».

- «وماذا تفيد الدموع . . » .

- «ألا تغتسل من الجنابة قبل أن تصلى؟ . » .

- «صدقت . . » .

فى بيوت الحميدية أكثر من مأتم ، والمآتم تقام على الغائبين بعد أن استبد اليأس ، وفشت خيبة الأمل ، وعم السخط ، وانتشرت الأقاويل ، وتبجح النقد ، لكن القبضة الحديدة الملوثة بالدماء الطاهرة ، لوحت للناس من جديد متوعدة منذرة . .

●●●

[١٥]

كانت الأحداث بعد الحرب تجرى وتتصادم دون نظام، وكثرت المحاكمات السياسية، فهناك قادة الجيش الذين تعاد محاكمتهم؛ لأن المحاكمة الأولى رفضها الشعب بسبب الأحكام المخففة الصادرة ضدهم، وهناك مجموعة المشير المنتحر أو المقتول -الله أعلم- التى اتهمت بمحاولة انقلاب ضد الرئيس، وهناك محاكمات الطلبة الذين تظاهروا ضد فساد الجيش والحكومة والهزيمة النكراء، ثم عفى عنهم لتهدئة المشاعر الوطنية الملتهبة الغاضبة، وخفتت إلى حين شعارات القومية والاشتراكية والقضاء على الرجعية، وسحق الإقطاع والرأسمالية، ولم يكن أمام الرئيس خيار سوى أن يرتمى فى أحضان السوفيت، ويزداد التصاقه بهم فهم الحليف الوحيد القوى، الذى يمدنا بالسلاح والذى يدرب لنا الطيارين، والذى بنى السد العالى، وعدداً من المصانع، ونسى الزعماء العرب الإهانات والاتهامات القديمة التى كالها لهم عبد الناصر، وقرروا الوقوف إلى

جانب مصر، وبقيت الصحف الداعرة، والأقلام الفاسدة تواصل مجونها ونفاقها وتزييفها للحقائق.

وفى خطوة لم تكن متوقعة صدر الإفراج عن الدكتور راضى وزميلته الثائرة الدكتورة رحاب، كان لخروجهما من السجن رنة فرح فى الكلية والمستشفى، وتسابق الزملاء للتهنئة والتكريم، وكان راضى يبدو هادئًا نحيفًا، ورأسه الحليق يعبر عن أشياء كثيرة، إن مظهره ككل يشى بالكثير من أسرار ما جرى، وضحك قائلاً برغم ذلك:

أمرتهمُ أمرى بمنعرجِ اللوى

فلم يستبينوا النصح إلا ضحى الغدِ

وهمس راضى فى أذن رحاب:

- «ألم تلاحظى شيئًا؟».

- «لا أعرف ما ترمى إليه».

- «الدكتور عبد المغيث لم يأت لتهنئتنا».

قالت وكأنها لا تريد الخوض فى أمره:

- «دعك من هذا الأمر، لقد انفصل عنا، واتخذ لنفسه طريقًا آخر..».

هز رأسه قائلاً :

- «كانت الضغوط أقوى من احتماله الهش . . لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها . . » .

- «إنه يركن إلى السلامة ، ولا يقبل إلا الصفقة الرابحة ، ويضيق بالابتلاءات . . » .

اعترض راضى قائلاً :

- «غيبة . . » .

تنهدت قائلة :

- «لم أقصد ذلك ، أستغفر الله» .

وعادا إلى عملها السابق فى المستشفى ، لكن الإدارة صرفت لهما متجمد المرتبات الخاصة بالشهور التى قضياها فى السجن ، كما أن نقابة الأطباء أصدرت لهما معونة مالية من صندوق الزمالة بالكلية ، وفى تلك الأيام سمعا أخبارًا مهمة لم تبلغهما من قبل ، فقد علما أن والد عبد المغيث لقى مصرعه غيله وهو أمام المسجد عندما ذهب لصلاة الفجر ، وأن عددًا كبيرًا من الأطباء قد أرسلوا إلى ميدان المعركة فى سيناء ، وأن أغلبهم قد عاد بعد أن انتهت المعركة ، لكن عبد المغيث لم يعد ، كما علما أيضًا أن زوج عبد المغيث حامل فى شهرها الأخير ، وقررا الذهاب إلى قرية

الحميدية لتقديم العزاء لأمه، ومواساة زوجه ملكة، ولم تمانع رحاب فى ذلك إيمانًا منها بأن مظلة الأخوة تظللهم جميعًا مهما حدث، وأن هذه الأخوة يجب أن تبقى وتصمد، وأن يلتمس كل أخ لأخيه العذر فيما اختلفا فيه، وأن يعملا معًا فيما اتفقا حوله من أفكار.

كان اللقاء مع تفاحة مشحونًا بالانفعالات الباكية، أخذت تذرف الدموع العزيزة، وتقول:

- «ذهب الفرارجى.. وذهب عبد المغيث ولم يعد.. وتركونى وحدى الليل والسهاد والحسرة.. وقاتل زوجى حر طليق.. أين العدل فى هذه الدنيا؟ والذين بعثوا بولدى إلى أرض النار لم يحموه من الخطر..».

كانت رحاب تواسيها، وتفاحة تشعر بالحرج البالغ، فهى تعلم أنها خطيبة ابنها الأولى، لكنها تجاهلت الأمر تمامًا، وكان لها عذرها لأن انشغالها بمأساة زوجها، وغيبة ولدها يجعلها فى منأى عن اللوم والعتاب.

عادت تفاحة تقول:

- «لقد بقيتما طويلاً فى السجن، فهل أصابكما مكروه؟».

قالت رحاب:

- «لكنها فترة انتهت بمرارتها، وهناك كثيرون غيرنا ما زالوا وراء الأسوار. . ».

- «عجبًا، ألم يتعظوا بما جرى لهم فى الحرب لقد سلط الله عليهم أخساء اليهود، وكان عليهم أن يستفيدوا من الدرس، ويرجعوا إلى الله، ويتقربوا إليه بالطاعة. . قلوبهم حجر. . ».

كانت ملكة نائمة، وعندما استيقظت خرجت من غرفتها فوجدتهما جالسين مع تفاحة، وتعرفت عليهما، وتذكرت أنها رأت رحاب قبل ذلك، وشكّت فى أنها قد تكون خطيبته الأولى، لكنها تجاهلت هذا الأمر، وتذكرت زوجها عبد المغيث، وسرعان ما اغرورقت عيناها بالدموع، وقالت فى شرود:

- «ألم تقابلوا عبد المغيث؟ لماذا لم يعد حتى الآن؟؟ لماذا. . لماذا؟ ألا يوجد فى هذه الدنيا من يرحمنا ويجيب؟».

وأخذ الدكتور راضى يشرح لها كيف أن منطقة سيناء واسعة جدًا، وأن الكثيرين من الجنود والضباط قد ساحوا فيها، واختلطوا بالبدو، ولبسوا مثل ملابسهم، وأن عمليات التسلل لهؤلاء الهاربين، وعبورهم للقناة تحدث يوميًا، والصحف تروى العديد من القصص عنهم، ثم إن هناك الأسرى، وإسرائيل تحرص على الحفاظ على الأسرى حتى يتم استبدالهم بأبنائها؛ لأن حرصهم على جنودهم شديد جدًا، كما أكد لها أن قيادة الجيش المصرى

تتلقى كل يوم قوائم بأسماء الجنود الأسرى والجرحى، ولن يمر وقت طويل حتى يتحقق الأمل، ويعود عبد المغيث سالمًا غانمًا إلى أهله.

ولم تسمح تفاحة وملكة لهما بالسفر إلا بعد تناول الغداء، ولم تفلح اعتذاراتهما وجلسا يأكلان، وتفاحة تقول:

- «هذا بيتكما . .».

وقالت ملكة:

- «لنأكل معًا العيش والملح . .».

وأثناء الطعام قالت ملكة:

- «كان يحدثنى عن مجتمع الصفوة ولم أفهم ما يعنى».

تبادل راضى ورحاب النظرات، واستطردت ملكة:

- «وأخبرنى أن المفكر الذى تحدث عن مجتمع الصفوة شنقوه . . وواضح أنه كان يحبه، ولديه كتاب له نخفيه فى مكان أمين . . هل حرّمت الحكومة قراءة الكتب؟ وكان يتكلم عن المجتمع الجاهلى، وقلت له إن الجاهلية ذهبت من زمن بعيد، منذ أن مات «سيدنا أبو جهل» . .».

وابتسم راضى، وأحنت ملكة رأسها فى أدب ولم تعلق، ولكن الدكتور راضى قال:

- «أبو جهل ليس سيدنا . . إنه رمز الكفر والضلالة ، ولذلك يمكن أن تقولي الملعون أبو جهل . . والجاهلية حالة يمكن أن تحدث في أي زمان ومكان ، وليست فترة زمنية بذاتها ، إن كل أرض لا تعبد الله حق العبادة ، ولا تقيم شرائع كتابه تكون أرضًا فيها جاهلية . . » .

هزت ملكة رأسها قائلة :

- «أهكذا؟»

- «نعم» .

- «معقول . . لكني أشعر في قرارة نفسي أن هذا الكلام لا يعجب بعض الناس . . قلت له يا عبد المغيث لا شأن لنا بالناس ، ما دمنا نعبد الله ونخافه ، نصلي ونصوم ونزكي ونحج . . وبالمناسبة أنا الآن الحاجة ملكة ، الحمد لله . . » .

فكرت ملكة قليلاً ثم قالت :

- «لماذا تفكرون في مثل هذه الأمور . . » .

- «لكي نكون مؤمنين ، ولا يهزمنا اليهود . . » .

- «هل أهل الصفوة لا ينهزمون؟؟» .

- «إنهم ينتصرون دائمًا . . » .

- «لكن الحكومــة شنقت الكاتب الذى ألّف ذلك الكتــاب يا دكتور» .

- «ومع ذلك فقد انتصر . . » .

- «لا أفهمك يا دكتور ، كيف ينتصر الميت؟» .

- «عندما يلقى الله شهيداً فى سبيل كلمة الحق . . » .

أمسكت ملكة برأسها ، إذ يبدو أن الحوار الجاد قد أرهقها ، ثم قالت :

- «تلك هى المشكلة . . الناس يختلفون حول ما هو الحق . . » .

- «إذا عرفنا الحق المجرد ، لم يصعب علينا اكتشاف الباطل» .

ردت فى شىء من الملل :

- «لقد تعودنا أن الحق هو ما تقوله الحكومة وما تفعله» .

- «هذا هو الخطأ الأكبر» .

- «أليسوا أولى الأمر؟» .

- «بلى ، ولكن ما يقولونه لم ينزل عليهم من السماء . . » .

- «من أين نزل إذن» .

- «من شياطين الإنس والجن . . » .

شهقت ملكة، وهتفت «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، أنا حامل يا دكتور.. يا رب أبعد عنا الشيطان».. بسم الله الرحمن الرحيم﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ① مَلِكِ النَّاسِ ② إِلَٰهِ النَّاسِ ③ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ④ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ⑤ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ⑥ ﴾ [سورة الناس]. صدق الله العظيم.

وبعد فترة صمت قالت:

- «إذا وهبنى الله ولدًا فسوف أنذره للأزهر.. وللقرآن..».

ابتسمت رحاب، وقالت:

- «وإذا كانت بنتًا؟».

- «سأهبها أيضًا للأزهر، وسأدخلها الطب..».

وأزمع راضى ورحاب الرحيل، وسلما واستأذنا فى السفر، ووعدا بأن يعودا مرة أخرى عندما يرجع الغائب العزيز، وقبل أن يديرا ظهريهما قالت ملكة:

- «أتعتقد يا دكتور أن عبد المغيث من مجتمع الصفوة؟».

- «نرجو أن يكون كذلك، ولا نزكى على الله أحدًا..».

وسكتت ملكة ولم تعلق، فقد أخذت تفكر فيما قال، إنها تجد بعض الصعوبة فيما تسمع، ربما لأنها لم تكمل تعليمها مثلهم، أو لأنها لم تتعود على مثل هذه المصطلحات.

فى طريق العودة قال الدكتور راضى :

- «يجب أن نحسم الأمر» .

- «أى أمر؟» .

- «زواجنا» .

- «كنت أعتقد أنك تشعرين بما أشعر به» .

- «كيف؟ . . » .

- «ألا تذكرين قول رسولنا ﷺ «الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»؟» .

قالت وهى تلمح إلى الماضى :

- «منذ متى؟» .

- «بعد أن أصبحت حرة ، وعزمت دون تردد بعد أن خضنا المعركة معًا ، وحسبنا معًا ، وضربنا معًا ، إن عقد زواجنا مكتوب بالدم ، قبل أن يكتبه المأذون بالمداد . . أبقى شىء يقال . . » .

قالت وقلبها يدق :

- «ألن تراودك أشباح الماضى؟» .

قال بنبرة صدق وحب وإيمان :

- «نحن نولد كل يوم . . » .

تنهدت فى ارتياح قائلة :

- «ومتى تأتى لزيارة أبى؟» .

-«الليلة . . أفهم من ذلك أنك وافقت؟» .

قالت :

- «عهدتك ذكيًا لمّاحًا . . » .

- «الحمد لله . . الآن يمكننى القول بأننا بسبيل البدء فى تكوين جيل من أهل الصفوة . . » .

وضحكا . .



[١٦]

فى اليوم الذى ولدت فيه ملكة ابنها الأول، جاءت الأخبار المؤكدة بأن الدكتور عبد المغيث حى يرزق، وأنه فى عداد الأسرى، طبقًا للقائمة التى جاء بها الصليب الدولى إلى مصر، وسمعت ملكة بذلك فنسيت آلام الولادة، ومشاقها، وزغردت، كانت الفرحة فرحتين، واحتضنت وليدها وقبلته قائلة: «يابشير الهنا»، وهنا ردّ أبوها قائلاً:

- «فلنسمه «بشير» إذن».

وما أن بُدئ فى تبادل الأسرى حتى عاد عبد المغيث وسط مهرجان صاخب من الأفراح فى قرية الحميدية التى استقبلت بطلها أروع استقبال، شاكرة لله أن نجاه من غدر اليهود وخبثهم، وأعاده إليهم سالمًا، بعد أن كاد اليأس يدب فى النفوس، فهناك أسرة فى الحميدية فقدت ثلاثة من أبنائها دفعة واحدة: جنديين وابن عمهما، وقيل إن والد الفقيدين جلس يبكى بعد أن جاءه الخبر من

القيادة، حتى اعتلت صحته، وكف بصره، فاعتكف فى بيته لا يغادره أبدًا.

قال الحاج متولى:

- «تجربة جديدة يا أبا بشير».

- «لكنها محزنة.. إن العبث بأرواح الناس أمر مهول.. كدسوا الرجال والسلاح وأطلقوهم فى التيه بلا خطة أو قيادة حقيقة.. فتاهوا فى دنيا سيناء الواسعة.. كانوا يطلقون النار عشوائيًا، فلم يكن عجَيبًا أن يقتل بعضهم البعض خطأ.. يا لها من جريمة..».

أما تفاحة فقد احتضنت ابنها الطبيب، وطوقته بذراعيها، وتشبثت به فى قوة وخوف قائلة:

- «لن أتركك تذهب هذه المرة إلى أى مكان فى الدنيا، ورجلى على رجلك..».

- «هذا ما قلته لك، فلم توافقى..».

- «الآن وافقت، ما كنت أصدق أنك ستعود..».

كان مكدود الجسد، مرهق النفس، يريد أن يستجم ويستجمع شتات نفسه، ويستعيد ما جرى، ويفكر فى أسبابه، ويتطلع إلى غد أفضل خالٍ من المظالم والعاهات والحماقات، ولكن الإصلاح لا

يأتى عفويًا أو تلقائيًا، إن طاقات الإنسان الجبارة هى الصانعة للتغيير، الطاقات موجودة لكنها مبددة مبعثرة، تتوزع وتتصادم، فى صراعات خاسرة، لا تخلف إلا العبث والدمار والفشل، هناك وسائل قذرة لغايات نبيلة، وهناك وسائل مشرفة لغايات تعسة، الناس ينفخون فى قربة مقطوعة كما يقولون، ولا حياة لمن تنادى، وأبو قردان يعيش حياة عبثية، يزرع الملوخية والباذنجان، ويحفر فى الطين ليعثر على سكين يذبح بها أبناءه، لقد التاث عقله أو جن جنونه، ربما بسبب المبيدات الحشرية السامة التى يعالجون بها آفات الزرع، لكنها فى الوقت نفسه تقضى على الطيور وخلايا النحل، وتسمم الجو، وتنحرف بالعقل عن طريق الجادة . . وأخذ عبد المغيث يغنى تلك الأغنية الشعبية التى يرددها أطفال القرية منذ سنين بعيدة :

أبو قردانْ

زرع فدانْ

نصّ ملوخية

ونصّ بذنجانْ

حفر فى الطين

لقى سكين دبح ولاده

وقعد مسكين

ضحكت ملكة عندما سمعته يغني، وأخبرته بأنها كانت تردد هذه الكلمات وهى صغيرة السن، ولم تكن تستطيع أن تفهم كيف أن أبا قردان يجسر على ذبح أبنائه، أين مشاعر الأبوة الحانية، إذن تلك التى أوجدها فى قلوب البشر والحيوانات، قال عبد المغيث:

- «لم يكن أبو قردان مخلوقًا سويًا، ولم يكن فى حالة عقلية صحيحة..».

- «الآن فهمت، لكن بقية الطيور لا تفعل ذلك».

- «لا تفعله إلا إذا مرضت..».

- «ولماذا لا نتغنى إلا بالنماذج الشاذة؟».

- «لأنها تصنع المآسى التى تزلزل كيان البشر».

راودها هاجس لعين، أيمكن أن يتحول عبد المغيث الطيب إلى أبى قردان مريض ويذبح ولده «بشير»، وهتفت دون وعى:

- «يا خرابى.. مستحيل.. مستحيل..».

قال عبد المغيث فى دهشة:

- «ماذا جرى؟».

- «أخاف على ولدى منك..».

وحملت الطفل، وحاولت الخروج من الغرفة، فأسمك بها قائلاً:

- «هل أصابك الجنون؟».

- «إنى أخاف على ولدى».

- «مم؟..».

- «من أبى قردان..».

ضحك من قلبه، ثم قال:

- «اجلسى يا ملكة.. هل سمعت أن أحداً فعل ذلك..».

- «نحن فى زمن كل شىء فيه جائز.. ألم تقولوا أنه زمن الجاهلية؟».

- «إنك تفهمين الأمور على غير وجهها الصحيح..».

- «منذ أن عرفتك تزلزلت أشياء كثيرة فى عقلى كانت مستقرة من قبل، ما هو الحق وما هو الباطل.. إنى أقع فى حيرة كثيرة هذه الأيام..».

- «يحدث ذلك عادة عندما يفكر الإنسان فى تغير حياته..».

- «ولماذا يغيرها ما دام مستقراً سعيداً..».

- «لأنه ينشد المزيد من الاستقرار والسعادة يا أم بشير..».

- «لكنى قانعة بما أنا فيه».

- «ليست هذه هى الحياة الفاضلة».

- «وماذا نريد أكثر من ذلك؟».

- «الإيمان.. العدل.. الحرية.. الكرامة.. أن تكون كلمة الله هى العليا..».

- «وهل هناك من ينازع الله فى ملكه؟».

- «نعم..».

- «وأين هؤلاء الكفرة؟ اليهود؟ الشيوعيون؟ الأمريكان؟».

- «وغيرهم..».

صحا بشير من نومه الطويل، وأخذ يبحث بفمه عن ثدى أمه، قالت:

- «الولد جائع.. لا تزعجه بالكلام حتى يرضع باطمئنان.. إنه جميل جداً يا عبد المغيث.. انظر إلى ملامحه الدقيقة، وعينيه المغمضتين، وشعره الحريرى الناعم.. لَكَم أحبه.. إنه يشبهك..».

- «لو كان يشبهك لكان أجمل».

- «اختار الرجولة».

- «تجاملينني، ما أنا إلا عبد ضعيف».

- «أحببتك، وتزوجتك، وكنت على استعداد لأن أحارب الدنيا، وأحارب إسرائيل حتى أفوز بك..».

- «هذا النبل الفطرى يأسرنى..».

- «خرجت من أسر اليهود، ووقعت فى أسرى.. يا ويلك!!».

المعركة الطاحنة لم تزل عاصفة فى رأسه، وصورتها لا تفارق خياله، الانسحاب الفوضوى الكبير، وجيوب للمقاومة صامدة فى يأس، وتفضل الموت على الاستسلام؟ ذلك لأنهم آمنوا وصدقوا ووجدوا موقعًا يتشبثون به ولو لمدة قصيرة، ومات من مات، وجرح من جرح، وأسر من أسر، والسادة الكبار يتوسدون الحرير، ويستنشقون البخور، ويكرعون الكؤوس، ويد خنون الحشيش، ويلاعبن الراقصات والفنانات الداعرات، ويتحدثون عن رفض الهزيمة، والإعداد لجولة قادمة، وحرب الاستنزاف، وقرارات مجلس الأمن، وجنة الاشتراكية، وجحيم الرأسمالية والإمبريالية الباغية، ورجال الأمن يجدون فى البحث عن المعارضين والناقدين والشامتين والرجعيين والسلبيين، والذين يُسخرون الدين لبلوغ أطماعهم، وحفلات الرقص والغناء تقام على الشاطئ الشرقى للقناة، وعادت القاهرة لتسهر حتى الفجر، والمطربون والمطربات،

والراقصون والراقصات يحيون الليالى الغجرية فى حانات شارع الهرم، ثم يقرأون الفاتحة على أرواح الشهداء، ويقفون دقيقة حداداً على الأرواح الشهيدة، والعندليب الأسمر، والعندليبة السمراء، وبقايا الجوقة يترنمن بأغنيات الحب والكفاح . .

- «حدثنى يا عبد المغيث عن الحرب».

- «سأحدث ابنى عندما يكبر».

- «ستكون قد نسيت . . ».

- «وكيف أنسى مأساة العصر التى أحزنت وطنى ولوثته بالعار . . ».

- «كم يهوديًا قتلت؟».

- «لم أذهب لأحارب، بل لتضميد الجراح . وإجراء العمليات . . ».

- «لو كنت مكانك لقتلت من اليهود عشرة على الأقل . . ».

- «للحرب أصول يا ملكة . . ».

- «والله لا أصول . . ولا حاجة . . الشاطر يضرب ويهرب . . إنها هكذا دائمًا، مثل المشاجرات التى تحدث فى الحميدية، لكن بصورة أكبر».

حينما عاد إلى المدينة لم يلحظ فيها تغيراً ملموسًا، صلى فى مسجد البدوى الكبير، وجد المجاذيب والذاكرين هائمين فى عالمهم السحرى، يتطوحون فى نشوة غريبة، غافلين عن الدنيا وما فيها، تمنى أن يشارك معهم كما فعل قبل ذلك، لكنه قمع هواه، سمع مجذوبًا يلبس ثوبًا مرقعًا بألوان شتى يصرخ من أعماقه:

- «وحدوه».

هتف «لا إله إلا الله».

وجاءه صوت المجذوب مرة أخرى ينادى ويلوح بيده:

- «وحدوه يا بهائم..».

- «تمتم: «أستغفر الله.. هذا رجل بذىء اللسان.. لكنه من يدرى لعله على حق.. ألم يقل ربنا فى كتابه عن الكافرين: ﴿أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

عاد المجذوب يقول:

- «وحده يا أحباب الله..».

وأخذ المجذوب يتراقص ويغنى:

يا سيدى يا بدوى

وياعمنا العدوى

إبــراهــيــم يا دســـــــوقــى

النــاس أكلت حـــقـــوقى

عـــــريان ومـش عـــريان

عطـشـــان ومش عطـشـــان

الـعـــــــشـــق دويـنـى

والـقــــرب عـــذبنـى

يـــا نـــاس أروح لـــه فـــين

وأجـــــيب دوايـا منـين

يا حـــبـيـــبى يا طبـيـــبى

ارحم عـــذاب شـــجـــونى

قدم واعظ المسجد على عجل، وفى يده عصاه المعوجّ، وكان يهرول ويلوح بها ويقول:

- «اخرج من هنا أيها المجنون، إنك تشوش على المصلين..».

وتقافز المجذوب، وجرى وهو يقول:

- «سامحه يا رب، إنه لا يدرى ما يفعل».

فى المسجد أقوام نائمون أغلبهم من أهل القرى، ورجال يقرأون

الصحف فى الظل وآخرون يرتلون القرآن، وجماعة تؤدى الصلاة، ومتسولون يمدون الأيدى، وحلقات متناثرة للدرس، ومخبرون يراقبون ما يجرى وفى أيديهم أجهزة تسجيل صغيرة، ومرضى منتفخو البطون يضرعون إلى الله أن يشفيهم أو يريحهم بالموت . . ومراقب المسجد يعلن عن فقدان طفل فى حوالى الرابعة من عمره، يلبس جلبابًا مخططًا باللون الأحمر اسمه «صابر» ونسوة يطلقن الزغاريد وهن يطفن بالضريح، ويقدمن الرشاوى والأطعمة لخدم المسجد حتى يسمحوا لهن بذلك التصرف الممنوع شرعًا، وأصحاب الحاجات يتسابقون إلى صندوق النذور ليسددوا ما عليهم تطوعًا وقربانًا، وبائع العرقسوس يعزف لحنه المميز بباب المسجد، والزوّار يتزاحمون حوله ليرطبوا أجوافهم بالمشروب البارد، والبائع المكّار ينادى على بضاعته قائلاً:

- «اشرب . . "ويسكى" الصالحين . . ».

وحينما عاد عبد المغيث إلى بيته، كانت أمه وزوجه فى انتظاره، وقد وضعوا الطعام على المائدة، وقالت ملكة:

- «لماذا تأخرت؟؟ ابنك بشير يقول بابا وحشنى جدًا جدًا . . ».

- «أهو الذى قال ذلك».

- «اسأله . . ».

خلع ملابس الخروج ، وارتدى منامته ، ثم جلس أمام المائدة . . قالت أمه :

- «لقد ترك لك الدكتور راضى دعوة لحضور فرحه . . » .

شرد بضع لحظات ، وتمتم :

- «إنى أدعو لهما بالسعادة . . » .

●●●

[١٧]

كانت سيناء ممرًا لمهربي المخدرات من إسرائيل وغيرها إلى مصر، وأصبح الاحتلال فرصة ذهبية لترويج هذه التجارة، وكان واضحًا أن اليهود يجنون من وراء ذلك ربحًا كبيرًا، فضلاً على أن انتشار المخدرات فى مصر يساعد على بذر الفساد، وإتلاف الشباب، وهدم القوى العاملة، والجو مهيأ هذه الأيام - عقب الهزيمة - للانحراف، والهروب من نوازع اليأس والكآبة والحيرة، التى تأخذ بمجامع النفوس، وكانت الصحف المصرية تنشر من آن لآخر أنباء الحملات الموفقة لرجال المكافحة وحرس الحدود والتى يقبض فيها على عدد من المتورطين فى تلك التجارة الشائنة، وفى أحد الأيام كانت ملكة تتصفح جريدة الصباح، وكانت تركز دائمًا على باب الحوادث، وتجد لذة فى قراءة أخبار الشباب الذين يختطفون الفتيات عنوة، والزوجات اللاتى يقتلن أزواجهن عندما ينصرفوا عنهن إلى نساء أخريات، والرجال الذين يثأرون لشرفهم

وكرامتهم، ولم تكن تهتم كثيراً لأخبار السياسة وخطب القادة، ومباريات كرة القدم، وإلى جانب الحوادث كانت تهتم بأخبار الأفلام السينمائية والنجوم والمسلسلات التى تحرص على مشاهدتها فى التليفزيون وسماعها فى الإذاعة، وفى صفحة الحوادث وقعت عينها فجأة على صورة لرجل ليس غريبًا عنها، تأملت الصورة جيداً . . وخرجت إلى الشرفة وأخذت تنظر إليها بإمعان، وهتف :

- «أقطع ذراعى إذا لم يكن هذا هو رمضان ابن عمى» .

وأخذ تقرأ بشغف عن عصابة لتهريب المخدرات تم القبض على أفرادها بمحافظة السويس، لكنها دهشت عندما وجدت أن اسم صاحب الصورة ليس رمضان، وأخذت تعيد النظر إلى الصورة وتقرأ الخبر مرة أخرى، ثم هزت رأسها قائلة «يخلق من الشبه أربعين» لكن إحساسًا داخليًا كان يهجس بأن الصورة صورة رمضان وانتظرت حتى عاد عبد المغيث من عمله، وأخبرته بالموضوع، وبعد أن استوعب ما فى الصحيفة قال :

- «إنه رمضان . . يحلو له دائمًا أن يصطاد فى الماء العكر . . » .

قالت ملكة :

- «والاسم المكتوب تحته».

ضحك وقال:

- «إذا أردت أن أستخرج لك بطاقة شخصية ويكون اسمك فيها أم كلثوم لفعلت..».

- «كيف؟».

- «هناك مختصون فى تزوير البطاقات وجوازات السفر مقابل مبلغ من المال، ورمضان هارب من جريمة قتل عقوبتها الإعدام، وليس له من مخرج سوى انتحال اسم شخص آخر، ثم إن العمل فى تجارة المخدرات يناسبه جدًا؛ لأنه يحقق له دخلاً محترمًا، ويوفر له الصنف أو الأصناف التى أدمن عليها».

- «والحل؟».

- «سأذهب إلى البلد الليلة، وأعرض الأمر على أبيك العمدة حتى يتصرف بصورة قانونية..».

عندما بلغ الخبر أهل الحميدية تسابقوا إلى شراء الجريدة، وانشغل الناس بالأمر رجالاً ونساء وأطفالاً، وأكد مصور ريفى محترف أن الصورة لرمضان بالتأكيد، وتذكر أهل البلد مصرع الرجل الطيب الذى راح ضحية الغدر والظلم، واحتشدوا أمام

دوار العمدة، وطلبوا منه السماح لهم بالذهاب إلى المركز للإدلاء بشهادتهم حتى يمسكوا بالمجرم الهارب، فأفهمهم الحاج متولى أن هذا الأمر أمانة فى عنقه، وسيبلغ المسئولين بهذه الشكوك القوية على الفور، ومن جانب آخر فقد استطاعت أم رمضان أن تبعث بأحد أصدقائه إلى السويس فى مهمة سرية، كى تخبر ولدها أن أمره قد انكشف، وبدلاً من أن يواجه تهمة تهريب المخدرات وحدها، فسوف يواجه خطراً آخر وهو قتله للفرارجى.

وتحرك المسئولون لكشف الخديعة، لكن رمضان كان قد أدرك خطورة الأمر، فأغدق الأموال على حراسه، وتصنع المرض ونقل إلى أقرب مستشفى فى السويس، وهناك استطاع أن يهرب دون أن يترك خلفه أى أثر، وغاص في العالم الواسع المضطرب، وقيل إنه عاد إلى القاهرة ومنها إلى أوكار الصحراء، وقيل بعدها أيضًا إنه عبر القناة إلى سيناء لكى يكون فى حماية اليهود وخدمتهم، وبعملية حسابية بسيطة قال رمضان لنفسه: «لم يعد لى فى مصر إلا الموت أو السجن، ومع اليهود الحياة».

قد يقولون عنه إنه خائن.. ليكن، لم يكن أمامه وسيلة أخرى لكى يعيش، والحياة برغم مرارتها جميلة، ويصعب أن يزهد فيها، ويتخلص منها، مهما كانت ممتلئة بالأشواك والعذاب.. وكان يظن

أنه مظلوم، وأن البلد ممتلئة بالقتلة والسفاحين والظلمة واللصوص الذين لم يطاردهم أو يقبض عليهم أحد.. فليكن واحداً من هؤلاء الطلقاء الأنجاس.. لقد خسر الدنيا والآخرة..

فليعش على أية صورة كانت، يأكل ويشرب، ويدخن الحشيش، وينهل الخمر، ويعاشر النساء، ويحاول جاهداً أن ينسى، ولماذا الانزعاج وهو آمن فى أحضان اليهود، ما دام ينفذ لهم أوامرهم، ويلبى لهم مصالح ولا ضير لهم سواء فى هذا المكان أو ذاك.

هكذا كان رمضان يحدث نفسه، بعد أن أسلم نفسه لليهود فى الشاطئ الشرقى لقناة السويس وبعد فترة من مساءلته وإقامة التحريات عنه تركوه يعمل فى خدمتهم، وفتحوا له قنوات اتصال مع البدو الموالين لهم أو الخائفين منهم، وكانوا يستعينون فى بعض الأمور التى يمكن أن يفيدهم فيها.

وأحياناً كان رمضان يشعر بالرغبة الجامحة فى العودة إلى قريته ويتخيل نفسه عمدة للبلد مكان المرحوم أبيه، والناس يحيطونه بالاحترام والتوقير، ويحلم بالليالى القمرية، وسهرات الأصحاب على أنغام الشيشة الزجاجية، وأبخرة الحشيش تغمر أفق الغرفة التى يجلسون فيها، وامرأة ساقطة ترقص وتغنى، والراديو يبعث

بأغنياته المشعشعة، ويتشوق أن يجلس على الحشائش الخضراء فى حديقة أبيه الكبيرة التى تكتظ بأشجار الموز والمانجو والبرتقال والليمون والجوافة وعناقيد العنب، حتى كلبه «شملول» الذى رباه على يديه، وعلمه بعض الحركات يشعر بحنين غامر إليه، وإلى الجلوس لمداعبته، إن سيناء عريضة واسعة، مليئة بالبشر وبالحركة والرزق، لكنه يشعر شعورًا قويًا بأنه سجين، وكلما استبد به القلق، واشتد به الملل انخرط فى تدخين الحشيش، وتعاطى المخدرات، كان يريد أن ينسى الماضى، وينقطع عنه تمامًا، وكان يهرب من الندم على جريمته التى لم يكن لها معنى، ولم يستفد منها شيئًا، فلا ملكة رجعت إليه، ولا علاقاته القديمة بالناس بقيت، ولا احتفظ بمنصب «العمدية» بعد أبيه، لقد خاض معركة خاسرة ضالة، وما كان لمثله- مهما كانت حماقته - أن يفعل ما فعل، فلم يكن الفرارجى فى يوم من الأيام مصدر تهديد أو خطر عليه، أحبه الناس وأحبهم، وحزنوا من أجله بقدر ما سخطوا على قاتله، إن الخواطر التى تثور فى رأس رمضان مختلطة بآثار المخدرات التى أدمن عليها، تجعله يستلقى بين اليقظة والمنام، يتشوق إلى الأيام التى كان يستغرق فيها فى النوم، ويصحو والنشاط يدب فى جسده.. الآن يشعر بالكسل والخدر وعدم الرغبة فى الحركة أو العمل، إنه يعيش كابوسًا طويلاً لا نهاية له، فإلى متى يظل على هذا الحال؟

تنامى بين الناس الإحساس القديم بفقدان الثقة فيمن بيدهم الأمر ، لقد فشلوا في الإمساك برمضان وهو بين أيديهم، مثلما فشلوا في إنزال الهزيمة باليهود، إنهم لا ينجحون إلا في شيء واحد وهو الإمساك بمن يشمون فيه رائحة المعارضة، فيلصقون به تهمة الخيانة والتآمر، ثم يبيحون لأنفسهم اتخاذ أي إجراء معه، مهما كان ذلك الإجراء قاسيًا أو متعسفًا . .

وفي سيناء قال شيخ القبيلة لرمضان العشري :

- «تستطيع أن تعيش معنا إلى الأبد» .

- «وأهلي؟» .

- «نحن أهلك، لم يعد لك خيار، ستنتحل شخصية بدوية، ونجهز لك الأوراق، ونزوجك إحدى بناتنا، ولتنس أن لك أهلاً غيرنا، والناس يا بني يهاجرون من دولة إلى أخرى، ومن قارة إلى قارة، وتمضي الحياة . . نحن عرب رُحَّل . . إقامتنا حيث رزقنا، وأمنا مصر . . ومصر كبيرة تمتد شرقًا وغربًا، وشمالاً وجنوبًا . . ونحن أينما كنا نعيش في أحضانها . . إذا أردت النصيحة، فلتغير لباسك ولهجتك، ولتستغفر الله، وتندم على ما فعلت، واعمل معنا، واكسب رزقك مثلنا . . » .

قال رمضان وهو يرتعش:

- «إذن فقد مات رمضان بن ماجد العشرى».

- «فليرحمه الله..».

- «إذن سأذوق الموت مرتين..».

- «أو ثلاثًا أو أربعًا..».

- «لماذا لا أختصر الطريق وأختار ميتة واحدة».

- «هذا عين الخطأ والغرور..».

كان الأمر شاقًا فى البداية لكن مرور الأيام على رمضان جعلته يتعود حياة البادية البسيطة، يحلب النوق والأغنام، وينحر الذبائح، ويرقص الرقصات الشعبية، ويتعلم أغانى البادية، وتزوج فتاة جميلة ذكية، عرفت كيف تغرقه فى بحار حبها، وبدت له الحميدية ومن فيها أشباحًا بعيدة يغلقها الضباب، كما لم يعد يشعر باحتلال اليهود للمنطقة، وبعض الناس يذهبون يوميًا للعمل فى المصانع والشركات اليهودية فى فلسطين المحتلة، ويتقاضون أجورًا مناسبة، ويعودون كل مساء، حتى خيل لرمضان أن الزمن قد توقف عند هذا الحد، ولا يبدو أن فى الأفق نذر شيء جديد، وأصبح تبادل القصف العشوائى بين المصريين والمحتلين أمرًا عاديًا

لا يلفت النظر، وتصاحب الناس مع الخطر، وتضاءل الخوف من الموت، ولم يكن رمضان يحزن إلا إذا تذكر ضحيته المسكين الفرارجى، ومن ثم كان يسرع بالهروب من هذه الذكريات الأليمة، وإذا فشل لجأ إلى المخدرات لكى ينسى، وإن كان شيخ القبيلة قد استطاع أن يخفف من شرهه لها لحد كبير . .



[١٨]

«هذه سنوات الفرار، من أراد أن ينجو بنفسه ودينه، فليهاجر إلى أرض الله الواسعة».. انطلقت هذه الصيحة من مجهول، لكنها أخذت تتردد فى الأنحاء، ويتجاوب صداها هنا وهناك، ووجد عبد المغيث الفرارجى الفرصة سانحة للسفر إلى إحدى دول الخليج بعقد مغر، وتحمس للفكرة، لكن ملكة اعترضت بشدة، وأعلنت أنها لا تقوى على الغربة، ولا تريد أن تبتعد عن بلدها وأبيها وأمها، وأن ولدها بشير يحب أن يعيش ويترعرع فى وطنه، حاول أن يقنعها بشتى الطرق، لكنها كانت مصرة على رأيها، وعندما هددها بأنه سوف يسافر وحده، أخبرته بأنها سوف تمنعه بالقوة، وهذا حقها كزوجة وحق ابنها الحبيب بشير وحق أمه تفاحة، قال عبد المغيث:

- «هناك.. الناس ينعمون بالحياة، ويعيشون فى أمان».

- «لقد سافرت ورأيت..».

- «أليس كلامى صحيحًا؟».

- «ربما.. ولكن قلبى يرفض».

- «وإذا اعتقلونى مرة أخرى، فماذا ستفعلين؟ ستندمين أشد الندم..».

- «فلنرض بقضاء الله..».

- «لا بد أن نفعل شيئًا من أجل حريتنا، بل ومن أجل ولدنا..».

- «عندى من الميراث ما يكفينا..».

- «ليس المال وحده هو الذى يحقق السعادة.. الأمن عندى أثمن من كل كنوز الدنيا.. إنك يا حبيبتى لم تجربى المهانة والسياط وغلظة الجلادين..».

- «الدنيا لا تبقى على حال واحدة».

ضحك الدكتور راضى الجناينى، وابتسمت الدكتورة رحاب عندما أخبرهم عبد المغيث برفض زوجه السفر، وأبدى راضى رفضه لفكرة السفر، بحجة أن البلد فى حاجة لمن يحمى مسيرتها، ويبذل جهده للإصلاح، فإذا فر أصحاب الرسالة والدعاة ورافعوا راية الحق والحرية، فسيخلُ الجو للفاسدين ويعم الشر، وتضيع الأحلام الجميلة:

- «نحن ضعفاء يا عبد المغيث أمام القوة الغاشمة، لكننا نحرس الأمل ونغنى له، إن أغنيات الليل الطويل هى طلائع الفجر . . » .

- «بل أغانى الغرباء الذين لا يسمعهم أحد . . » .

- «ليس هذا صحيحًا . . الطيور تغنى، والمطربون فى القرى والكفور يرددون أساطير عنترة وأبو زيد الهلالى . . والسامعون يترنحون عشقًا وشوقًا . . والشيخ رفعت يقرأ بصوته الحنون آيات الله والأرواح تحلق فى أجواء الأمل والرحمة . . ولا يلتفتون إلى الشعارات المجوسية، والهتافات الجاهلية . . » .

ضحك عبد المغيث :

- «أصبحت رومانسيًا يا فتى» .

- «لولا الحلم لمات الإنسان . . » .

- «هذا زمن الكوابيس يا ابن الجناينى» .

كانت رحاب تستمع إلى حديثهما فى شغف بالغ وتفكر فيه بعمق، وعندما سألها زوجها راضى عن رأيها قالت :

- «لا أعتقد أن هناك قاعدة واحدة نمشى عليها فى هذا الموضوع، إذ يمكن أن يسافر البعض، ويبقى البعض الآخر، وللمؤمن رسالته التى يستطيع أداءها فى أى موقع، والعمل فى الخارج ذو فوائد شتى لا شك فى ذلك، والذين يسافرون عادة نسبة

ضئيلة لا تؤثر فى المسيرة، بل ربما تدعمها وتثريها، ما دام البنيان متماسكًا..».

صفق عبد المغيث فى فرح:

- «أخيرًا وجدت من ينصفنى، لقد أنطق الله رحاب بالحق.. لا فُضّ فوك يا أختاه..».

قد يبدو غريبًا أن تمحى آثار القصة القديمة، تلك التى حدثت عندما فسخت خطبة عبد المغيث ورحاب، لكن قوة الرباط الذى يجمعهم استطاعت أن تبدد مشاعر الألم والذكريات الحزينة، وخاصة أن الثلاثة سيقوا إلى المعتقل، وتعرضوا للمعاناة، وانتفت الحساسية الخاصة بهذه الأمور، فقد تزوج الجميع، وبدأوا عهدًا جديدًا لا مجال فيه للغضب والأحقاد.

وتدخل الحاج متولى العشرى بين عبد المغيث وملكة لكى يخفف من وطأة الخلاف الناشب بينهما حول السفر، وأوضح لهما أنه يدرك ظروف الطرفين، ولا يمكنه أن يحكم على أحدهما بالخطأ، لكن حكمة الرجل الذى تاب وأناب واستغفر من ذنوب الماضى خاطب عبد المغيث من الناحية العاطفية، حين ذكر له أنه رجل مريض تقدمت به السن، ويحمل أعباء العمدية، ولم يعد له فى الدنيا أطماع، وأيامه على الأرض معدودة فليس كثيرًا على عبد المغيث أن يرحم شيخوخة عمه، ويترك له ابنته الوحيدة وحفيده

الوحيد ليسعد بهما وبه أيضًا، وفى الوقت نفسه يرعى أمه تفاحة، ويعوضها عن أيام الشقاء التى أكلت من صحتها وعمرها وسعادتها الكثير، والعمر الطويل إن شاء الله أمام عبد المغيث وزوجه وابنه، وسيجدون الفرصة تلو الفرصة للسفر إلى الخارج فى المستقبل، وعندئذ لن يعوقه وجود أم أو صهر، وعندها قد تغير ملكة من رأيها، ودمعت عينا الحاج متولى، فتأثر عبد المغيث، وقال فى انفعال:

- «أطال الله عمرك وعمر أمى.. إننى أعاهدك ألا أسافر للخارج إلا إذا وافقت..».

ومرت الأزمة بسلام، لكن عبد المغيث لم يستطع أن يكظم أشواقه إلى الخروج إلى أرض جديدة يتحرر فيها من الخوف والقلق، ويحاول أن ينظر فى ماضيه، ويتفحص المبادئ التى عاش فى ظلها، ويستخرج ما بدر فى تصرفاته من صحة أو خطأ، يريد أن يقيِّم مسيرته فى جو حيادى هادئ لا ضغوط فيه ولا ملاحقات..

عاد عبد المغيث متأخرًا من العيادة التى يعمل بها، لكنه وجد ملكة تجلس وفى حجرها بشير النائم:

- «لقد تأخرت كثيرًا».

- «آلام المرضى لا يمكن تأخير علاجها..».

- «اتصل بك الدكتور راضى تليفونيًا، وألح فى طلبك . .» .

- «لماذا؟» .

قالت بهدوء يشوبه الخوف :

- «إنه سيسافر بعد غد إلى البحرين» .

- «لماذا؟» .

- «عقد عمل ، ومعه رحاب . .» .

نظر فى ذهول ، وقال :

- «ماذا جرى؟ لقد كان يرفض ذلك تمامًا . .» .

ابتسمت ملكة فى مكر ، وقالت :

- «فتّش عن المرأة . .» .

ضرب عبد المغيث كفًا بكف ، وقال :

- «أكاد لا أصدق . .» .

رفعت ملكة سبابتها اليمنى محذرة :

- «إياك أن تنقض الاتفاق الذى تم بيننا» .

تثاءب وقال :

- «إنى جائع ، وسأنام على الفور بعد الأكل . .» .

ثم استدرك قائلاً:

- «كيف وافق الأمن على سفره؟ وموقفه من التجنيد.. إنه تحت الطلب إلى أن تنتهى الحرب..».

قالت ملكة:

- «أنه معفى من التنجيد لضعف بصره ومسألة الأمن بسيطة، الوساطة لها فعل السحر، وقد أخبرنى أن الحكومة قررت رفع الحظر عن سفر المعارضين السياسيين حتى تتخلص منهم، وينشغلوا فى الخارج بجمع المال.. هو الذى أخبرنى بذلك كله..».

تمدد عبد المغيث فى سريره، بعد أن تناول طعام العشاء، وموضوع سفر راضى يشغل ذهنه، سوف يفلت راضى وتفلت رحاب من قبضة الظلم «أراهن أنهما لن يعودا إلى مصر مرة أخرى ما دام عبد الناصر حيًا».

قالت ملكة فى غيرة ظاهرة:

- «تريد أن تسافر وراءها..».

- «هل جننت؟ إنها زوجة رجل آخر الآن».

- «أعرفكم، الرجال عيونهم زائغة..».

- «اتق الله».

- «بل اتق أنت . . أقسم على ألا أغادر الوطن ما دمت حية . . » .

استدار ونام على جانبه الأيمن ، وهو يتمتم :

«باسمك اللهم وضعت جنبى وبك أرفعه» .

قاطعته قائلة :

- «هل ضايقك كلامى؟ بصراحة لا أريد أن أزورها أو تزورنى» .

- «رحاب أختك . . » .

- «بل ضرتى . . » .

ضحك قائلاً :

- **«ناقصات عقل ودين»** .

- «قلبى يحدثنى بأنك . . » .

قاطعها قائلاً :

- «كفى . . أنا مرهق ، وأريد أن أنام . . » .

وبدأ بشير فى الصراخ ، قالت :

- «إنه يحتج عليك . . » .

- «إذن لا بد أن أنتقل إلى غرفة أخرى حتى يمكنني النوم» .

- «سآتى وراءك . . » .

- صدق عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- حينما قال : «إننى أفر من قدر الله إلى قدر الله» .

وخرج حاملاً وسادته وغطاءه وهو ينفخ فى غضب .



[١٩]

حدثت موجة من الغضب عمت معظم قطاعات المجتمع، لعل من أبرزها تظاهرات حاشدة فى جامعة الإسكندرية، وإضراب العمال فى بعض الشركات الكبيرة، ونشاط ملحوظ لبعض الأحزاب القديمة المحظورة، وكانت الهزيمة المنكرة قد جعلت الحكومة تخفف من قبضتها، وأوجست الحكومة خيفة من هذا التمرد المتنامى، خاصة فى الوقت الذى بدأت فيه حرب الاستنزاف كما يسمونها، وإعادة تسليح الجيش، وبدء تكوينه من جديد، وتدعيم العلاقة مع الاتحاد السوفيتى والدول الشيوعية التى تساند مصر عسكريًا واقتصاديًا وسياسيًا، وصدرت الأوامر بالقيام بحملة اعتقالات وقائية، على الرغم من عدم وجود أية مؤشرات لمؤامرات جديدة، ولم تكن هذه الموجة من المعارضة إلا رد فعل، لسوء الأحوال، وغلاء الأسعار، وتفشى الفساد والرشوة والفوضى، وكبت الحريات، وأدرك الناس أن درس

الهزيمة القاسية قد تلاشى، وبدأت السلطة تعود إلى أسلوبها القديم فى الحكم والسياسة، وكأنه لم يحدث ما يدعو إلى التغيير، وحاولت الحكومة أن تنبه إلى مخاطر ما يجرى على الساحة وتأثيره على المعركة الحاسمة المقبلة، بين مصر وإسرائيل، ثم أخذت ترسل بالتهديد والوعيد، حتى المعتقلون القدامى الذين مازالوا يعيشون فى السجون نشطوا فى تنظيم كوادرهم، وتحريض من يؤيدونهم فى الخارج، وعادت الأفكار الثورية التى تنتسب إلى الدين تنتشر بين الناس، وعادت الكتب المحظورة للتداول سراً، ومن هنا رأى خبراء الأمن أن هناك ضرورة قصوى لتوجيه ضربة وقائية حاسمة، حتى تسكت صوت المعارضة والنقد، كى تواصل استعداداتها لمعركة المصير التى ستحدث قطعًا بعد شهور أو سنوات . .

وكان عبد المغيث بعيداً عن هذا كله، كان غارقًا حتى أذنيه فى العمل بالمستشفى صباحًا، وفى العيادة الخاصة مساءً، لكن أمه كانت تشكو من الملل الذى يلازمها وهى فى المدينة، وتلح على ابنها أن يسمح لها بالسفر إلى القرية لتسترجع ذكريات العمر، وتكون على مقربة من زوجها، وتعود إلى زراعة الأرض المؤجرة للآخرين، وتربى الماشية، وكانت تعتقد أن الأيام التى تقضيها فى المدينة أيام انتظار . . . انتظار الموت الذى لا شك سيأتى فى أى

وقت، وكانت ملكة تخفف عنها، وتحاول جاهدة أن تلبى لها كل مطالبها، وتكرر دائمًا القول بأن مسكنهم فى المدينة لا ينقصه شىء وأنه كالجنة، وكل شىء متوفر فيه، الحب والمال والصحة وبشير الصغير وعبد المغيث ولدها الوحيد.

وترد تفاحة عليها قائلة:

- «يموت السمك إذا خرج من الماء».

ومع ذلك فقد رضخت على مضض لإلحاح ابنها الطبيب فى أن تبقى، والحق أن الذى جعلها ترضى هو ذلك الحفيد الصغير الذى أحبته حبًا ملك عليها شغاف قلبها، ولم يكن ذلك فحسب، بل إن ملكة شعرت بأعراض الحمل بعد ولادتها بثلاثة أشهر، وكان الأمر مثيرًا للدهشة والفرح أيضًا، ولقد كان عبد المغيث يتوقع أن تبقى بلا حمل حتى تنتهى رضاعة ولده بشير، لكنها إرادة الله، وقال عبد المغيث عندما تأكد من الحمل:

- «هذا شىء طيب، يجب أن أعوض ما فات أبى رحمه الله، لم ينجب غيرى، أما أنا فأتعشم أن يكون لى من الأبناء عشرة».

وضحكت ملكة فى سعادة قائلة:

- «من أين تطعمهم وتعلمهم.. سيأكلون الأخضر واليابس..».

قال :

- «إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين . . . وأنا أطمع أن يحاول الإسلاميون زيادة النسل ، حتى تكون لنا قوة ضاربة غالية . . . » .

قالت ملكة :

- «أخاف أن يأتى يوم تحاكم فيه الحكومة من ينجبون أكثر من اثنين» .

- «لا بأس . . . » .

- «وأنا سأعوض أيضًا أمى ما فاتها من نسل» .

ضحك عبد المغيث قائلاً :

- «إنها إذن مؤامرة» .

- «لم يبق شيء فى بلدنا إلا ويمكن أن يكون مؤامرة . . » .

ثم ضحك بصوت عالٍ ، وقال :

- «تصورى . . حتى جلاد السجن الحربى حمزة البسيونى قبضوا عليه ، واتهموه بالتآمر مع جماعة المشير المنتحر . . لو كنت منهم لأنعمت عليه بوشاح الشيطان الذهبى . . . يبدو أن محاكمته كانت إحدى المهازل المسرحية . . . قد حكم له بالبراءة وخرج

معززًا مكرمًا . . . لكن أليس الأمر مثيرًا للسخرية أن يجعلوا من قائد السجن الحربي سجينًا فيه؟ . . » .

- «سجنوه في بيته الذى عشقه وترهبن فى ساحاته الحمراء . . . » .

كان الحاج متولى العشرى يتردد على ابنته على الأقل مرة فى الأسبوع ويحضر لها ما لذ وطاب من الأطعمة الريفية اللذيذة الطعم، ويقضى معهم يومًا وليلة، ويراجع طبيبه المختص دوريًا، ويجرى التحاليل الضرورية، وكثيرًا ما كانت تصاحبه زوجه، وكان حب العمدة وزوجه يتركز بصورة أكبر على الصغير بشير، وكان يعتبره خليفته، وأكثر شبهًا به من أبيه وأمه، وقدر الحاج متولى أن يشترى باسم بشير شهادات استثمار من الفئة (ب) ليضمن له بها مستقبله، وكانت ملكة تشير إلى بطنها قائلة : «والذى فى بطنى، أليس له نصيب فى شهادات الاستثمار؟» فيؤكد لها أن كل مولود تلده ذكرًا كان أم أنثى سيحظى بالمكافأة نفسها، وكثيرًا ما يردد بأنه كلما نظر إلى وجه بشير السمح الصبوح دعا الله أن يغفر له ما مضى من السيئات التى ارتكبها؛ لأن مظالمه القديمة كانت كفيلة بأن تهدم كل خير يتوقعه، لكنه تاب مستغفرًا، وقد شعر بإحساس داخلى أن الله قد غفر له، وخاصة بعد أن حج إلى بيت الله الحرام فى المرة الأخيرة .

بينما كان الحاج متولى فى المدينة وردت «إشارة» غريبة علم الناس بأمرها، وعجبوا أشد العجب، وانطلق الصياح والعويل من بيت العمدة القديم ماجد العشرى، وكان مضمون الإشارة أن رمضان ابن العمدة قد مات منتحراً بشنق نفسه، وأن بدو الصحراء فى سيناء قد دفنوه هناك، كما أرسلت زوج رمضان رسالة تطلب فيها الاحتفاظ بحقها الشرعى فى ميراث زوجها، وخاصة أن بين أحشائها جنينًا لم ير النور بعد . . .

- «هكذا أخذ الله بحقك يا فرارجى . . . كنت ضعيفًا، لكن خالقك هو القوى، وعجز ذووك عن الثأر لك، فأخذ الله بثأرك، وكنت فقيراً يا فرارجى، فنزلت عليك نعم الله وبركاته، وكنت حبيبًا محبوبًا من الجميع، وباء عدوك بالكراهية والنقمة والاحتقار . . .» .

كان الناس فى الحميدية يرددون هذه الكلمات وأشباهها، ولم يكتفوا بذلك، بل ذهب البعض إلى القبر المدفون فيه الفرارجى وتربعوا حوله، وأخذوا يرتلون آيات الله الكريمة، ويدعون به الرحمة والغفران، وكانت دعواتهم تصدر عن قلب عامر بالإيمان والمحبة؛ ذلك لأن الفرارجى الفقير الصابر الصادق لم يكن مجرد فرد فى أعينهم، لكنه أنموذج للفلاح المؤمن المثالى،

الذى لم يتلوث أو يتبدل فى السراء أو الضراء، وفى البعد أو فى القرب، وعادت تفاحة إلى القرية، لتقيم من جديد صيوانًا للعزاء، ولم تستجب لمن حاولوا إقناعها بأن ذلك لا جدوى منه، وأنه مجرد مظهر من المظاهر الجوفاء، وأنه لن يزيد من قدر الفرارجى؛ لأن قدره عند الله عظيم، وبعد أن انتهى المقرئ من قراءته، وقف الدكتور عبد المغيث، والدموع تترقرق فى عينيه، وقال:

- «أيها الناس.. فليفرح فى الموت من لا يموت.. وكلنا إلى القبر ذاهبون.. نحن لا نشمت فى أحد، ولا نفرح لموت أحد.. سعيكم مشكور، وذنبكم مغفور... قوموا إلى بيوتكم يرحمكم الله... وإن شئتم فاذهبوا وقدموا العزاء لأهل رمضان..».. تجلى التقدير والإكبار على وجوه الحضور وفى أعينهم، ولم يستغربوا ما حدث، فالولد سر أبيه، وقد كان الفرارجى رجلاً صادقًا متسامحًا، لم ينتقم لنفسه من أحد، أو يغضب على أحد حتى الذين كانوا يسيئون إليه، أو يسرقون جزءًا من محاصيله؛ لأنه كانت لديه الثقة المطلقة فى رزق الله وعدالته..

قالت أم رمضان فى تذلل:

- «أليس فى الدنيا من يحضر جثة ولدى؟».

رد عليها الحاج متولى قائلاً:

- «هذا مستحيل يا ابنة العم...».

قالت فى أسى:

- «لقد ضاع حيًا وميتًا...».

●●●

[٢٠]

تدهورت صحة الحاج متولى العشرى مع تقدم السن، وتغلغلت مضاعفات مرض السكر والضغط، وقلّت أنشطته سواء على مستوى منصبه أم على المستوى الشخصى، فلم يعد يتاجر أو يشرف إشرافًا كاملاً على زراعته، لكنه قادر على أداء الحد الأدنى من العمل، وراضٍ بقضاء الله وقدره، سعيد بالزيارة الأسبوعية إلى المدينة، ويستغرق فى النظر إلى وجه حفيده كالعاشق المسحور، لكَم يحب هذا المخلوق الصغير الذى يعتبره أثمن من كل كنوز الدنيا، إن الحاج يتذكر أيام الفتوة والشباب والنشاط التى مرت كالسحاب، ولم يكن يقدر حلاوتها وروعتها، بل كثيرًا ما كان يقضيها فى اللهو والعبث والتجبر، والإطاحة بكل من يقف فى طريقه، ويردد بينه وبين نفسه:

ألا ليت الشباب يعود يومًا

فأخبره بما فعل المشيبُ

وأحيانًا يبكى ندمًا على خطايا الماضى، فتتساقط الدموع على خديه، ويرتجف جسده، ويهمس:

- «أترى يغفر الله لى».

وتقول له زوجه:

- «لقد كتب الله على نفسه الرحمة..».

-«أعرف، لكنى أشعر أحيانًا بجسامة ما ارتكبت من خطايا».

- «الحسنات يذهبن السيئات يا متولى، وأنت أحسنت وأحسنت.. حتى أيام عنفوانك كنت تحسن إلى الفقراء..».

وجلس الحاج متولى فى مسكن صهره الدكتور عبد المغيث بالمدينة، ومن حوله زوجه وابنته وصهره وتفاحة، كانت جلسة هادئة هانئة، فقد أفلح العلاج فى تخفيف الكثير من آلامه ومتاعبه المزمنة، وأخذ يروى لهم الكثير عن ذكريات الأيام الخوالى، وكبريات الأحداث فى الحميدية وما حولها من القرى، ومعارك الثأر، وصراعات العائلات، وأيام الانتخابات العاصفة التى كانت تشترك فيها الأحزاب القديمة، وشراء الأصوات، والتزييف والتزوير، وحكايات كثيرة عن أحداث لم يشهدوها، وكان الجميع مسحورين بحديثه العذب، وتعليقاته الذكية، وإدراكه لبواطن الأمور... كانوا يستمعون إليه فى شغف، حتى قاربت الساعة

الواحدة بعد منتصف الليل، فكف عن الحديث على أساس أن الوقت قد تأخر، وأنهم جميعًا فى حاجة إلى الراحة، وسوف يكون للحديث بقية إن شاء الله فى الليلة القادمة، لكن جرس الباب يدق فى إلحاح دقات متتالية، وأرهف الجميع السمع سائلين «ماذا جرى؟»، وأسرع الدكتور عبد المغيث صوب الباب، وما أن فتحه حتى تدفق عدد من الرجال المسلحين إلى الداخل، وقد عقدت الدهشة ألسنة أهل البيت، وقال الحاج متولى بعد أن فهم سر ما يجرى:

- «لقد أخطأتم فى العنوان».

رد عليه رجل الأمن قائلاً:

- «كيف نخطئ، إننا نعرف ما يجب عمله، وهذا هو عبد المغيث الفرارجى، وهذا هو عمله».

قاموا بتفتيش الشقة، واستولوا على بعض الكتب والأوراق، ووضعوا الأغلال فى يد عبد المغيث، قال الحاج متولى:

- «أنا عمدة الحميدية، أنا أضمنه».

- «لا ضمان.. ونحن لا نقبل ضمانًا، بل نأخذ الشخص المطلوب».

- «أمعك إذن من النيابة؟».

- «الإجراءات الاستثنائية لا تقتضى ذلك».

- «لكنه لم يرتكب جرمًا . . .».

- «نحن لا ننتظر حتى يحدث ذلك».

- «إن دوريش بك مفتش الداخلية يعرفنا جيدًا . .».

- «ولو . . لا بد من تنفيذ الأوامر . .».

دارت الأرض بالحاج متولى، وبكت تفاحة، وصرخت ملكة، وكذلك الصغير بشير، وبقى الدكتور عبد المغيث صامتًا شاحبًا جامدًا، وكأن الكابوس القديم قد عاوده.

قالت تفاحة :

- «لم يعد لى فى الدنيا سواه».

وقالت أم ملكة :

= «أنا لا أفهم شيئًا، الرجل من بيته إلى عمله؛ ومن عمله إلى بيته، لم نره يخرج على النظام . . .».

أما الحاج متولى فقد أخذ يردد «لا حول ولا قوة إلا بالله . . .».

هبط عبد المغيث الدرج مخفورًا، سمع ملكة تصيح مرة أخرى وتقول :

- «ليتنا تركنا هذه البلد وسافرنا . . يا ندمى . . ويا ندامتى . .».

جلس عبد المغيث فى سيارة الشرطة حزينًا قلقًا، أخذ ينظر إلى أضواء الشارع الخافقة «شارع النحاس»، والسكون الذى ألفه فى الليل يغطى البيوت، والناس نائمون، والسماء تتألق فيها النجوم دون أن ترتجف أو تتأثر، الكون كله فى واد وهو فى واد، لقد كان متعبًا ويريد أن ينام ويحلم بالغد الجميلَ، مضى زمَن الأحلام وسيطر عهد الكوابيس الثقيلة السوداء، وفى الفجر وصل إلى بوابة المعتقل الكالحة مرة أخرى، والعسكرى يفتح الكوة الصغيرة وينظر من خلالها.. تمامًا كما حدث فى المرة السابقة... إنه يعرف بقية القصة المكررة... العادة... حفل الاستقبال.. حلْق الرؤوس، لحن السباب والشتائم والبذاءات الرخيصة، ثم النوم على «البرش» المصنوع من سعف النخيل، ولبس الأردية الزرقاء المتعفنة الممتلئة بالحشرات، لا جديد فى الأمر.. لا شىء يتغير أو يتطور.. حتى الاتهامات ستكون كالأمس.. سيكون حسابه عسيرًا؛ لأنه نقض الاتفاق القديم ولم يتعاون معه ويشى بإخوانه..

صاح بأعلى صوته بالنشيد الذى حفظه أيام الأربعينات وهو صغير:

فى سبيل الله أدخلنا السجونْ

والمخرجون من الديار بلا ذنوب يسجنون

قال الصول الضخم الجثة، الأسود الوجه، الأجش الصوت:

- «إذا لم تسكت فسأسكتك إلى الأبد . . » .

«والتقمه الحوت الهائل فى بطنه . . . » .

●●●

حينما ذهب الحاج متولى فى اليوم التالى إلى وزارة الداخلية لمقابلة دوريش بك قيل له إن درويش بك قد أحيل إلى التقاعد فى حركة التطهير السابقة ، وإنه الآن قد حصل على وظيفة مدنية بإحدى شركات القطاع العام . .

هز الحاج متولى رأسه ، وقال :

- «لم يبق لنا أحد سواه» .

- «مَنْ تقصد يا رجل؟ . . » .

رفع عينين دامعتين محمرتين إلى السماء ، وقال :

- «الله . . . » .



كتب للمؤلف

روايات:

١- نور الله (جزءان).

٢- اليوم الموعود.

٣- قاتل حمزة.

٤- مواكب الأحرار.

٥- النداء الخالد.

٦- عذراء جاكرتا.

٧- ليالي تركستان.

٨- عمالقة الشمال.

٩- الظل الأسود.

١٠- دم لفطير صهيون.

١١- الطريق الطويل.

١٢- ليالى السهاد .

١٣- حكاية جاد الله .

١٤- رجال . . وذئاب .

١٥- رحلة إلى الله .

١٦- رمضان حبيبى .

١٧- فى الظلام .

١٨- اعترافات عبد المتجلى .

١٩- امرأة عبد المتجلى .

٢٠- قضية أبو الفتوح الشرقاوى .

٢١- عمر يظهر فى القدس .

٢٢- أرض الأنبياء .

٢٣- ليل الخطايا .

٢٤- ليل وقضبان .

٢٥- طلائع الفجر .

٢٦- رأس الشيطان .

٢٧- ملكة العنب .

٢٨- الرجل الذى آمن .

٢٩- مملكة البلعوطى .

٣٠- حمامة السلام .

٣١- الربيع العاصف .

٣٢- الذين يحترقون .

٣٣- عذراء القرية .

مجموعات قصصية قصيرة:

٢٤- عند الرحيل .

٣٥- العالم الضيق .

٣٦- موعدنا غداً .

٣٧- الكابوس .

٣٨- فارس هوازن .

٣٩- دموع الأمير .

٤٠- حكايات طبيب .

السيرة الذاتية:

٤١- لمحات من حياتى - جزء أول .

٤٢- لمحات من حياتى - جزء ثان .

٤٣- لمحات من حياتى - جزء ثالث .

٤٤- لمحات من حياتى - جزء رابع .

٤٥- لمحات من حياتى - جزء خامس .

مجموعات شعرية:

٤٦- أغانى الغرباء .

٤٧- عصر الشهداء .

٤٨- كيف ألقاك .

٤٩- مدينة الكبائر .

٥٠- مهاجر .

٥١- أغنيات الليل الطويل .

٥٢- نحو العلا .

دراسات إسلامية وأدبية:

٥٣-مدخل إلى الأدب الإسلامى .

٥٤- آفاق الأدب الإسلامى .

٥٥- رحلتى مع الأدب الإسلامى .

٥٦- تجربتى الذاتية فى القصة الإسلامية .

٥٧- أدب الأطفال فى ضوء الإسلام .

٥٨- حول المسرح الإسلامى .

٥٩- القصة الإسلامية وأثرها فى نشر الدعوة .

٦٠- نحو مسرح إسلامى .

٦١- الإسلامية والمذاهب الأدبية .

٦٢- الطريق إلى اتحاد إسلامى .

٦٣- الإسلام وحركة الحياة - جزء أول .

٦٤- الإسلام وحركة الجياة - جزء ثان .

٦٥- حول الدين والدولة .

٦٦- تحت راية الإسلام .

٦٧- نحن والإسلام .

٦٨- الثقافة فى ضوء الإسلام .

٦٩- إقبال الشاعر الثائر .

٧٠- شوقى فى ركب الخالدين .

٧١- الأدب الإسلامى بين النظرية والتطبيق .

